﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
فلسفة قرآنية في سبيل السلام العالمي

د. علي محمود عكام *

(*) رئيس قسم الفقه الاسلامي وأصولِه ، و مدرِّس في قسم أصول الدِّين – كلِّية الشَّريعة – جامعة حلب – الجمهورية العربية السورية.

ملخص البحث:

تنهضُ فكرةُ البحثِ على تدبُّرِ المَنهجِ الماثِلِ في قولِه تعالَى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1] مِن حيثُ هو فلسفةٌ مُثلَى[2] في سَبيلِ السَّلامِ العالميِّ، ومِن حيثُ هُو مِن قبلُ مَنهجٌ قُرآنيٌّ واجبُ القَفْوِ والاتِّباعِ وجوبَ سائرِ فرائضِ الإسلامِ، ممَّا عليه قِوامُ الدِّينِ، وبه صلاحُ الإنسانِ.

ومقصُودُ البحثِ -على الجُملةِ- تفهُّمٌ لتلكَ الآياتِ التي خاطبَت الإنسانَ على الخُصوصِ بمُمارسَةِ الدَّفعِ بالحُسنَى خطاباً أكيداً، إذ جاءتْ على سبيلِ الأمرِ القاضِي بالوُجوبِ.

وظنِّي أنَّ هذه **المُمارسةَ** الواجبةَ ليستْ تُؤدَّى أداءَها الأقوَمَ ما لَم تَستَقِم علَى **مُدارسةٍ** تأصيليَّةٍ، تجلُو أمامَها مراشِدَ التَّطبيقِ، وتنفي عنها خطَلَ الفهمِ، وتُجنِّبُها خطأَ الأسلوبِ.

هذا ما رامَ البحثُ اجتلاءَهُ والوقوفَ على معالمِه، من طريقِ ما يتَهدَّى إليهِ من بيِّناتٍ ودلائلَ تُوحيها آيُ القُرآنِ الكريمِ في هذَا المَساقِ، ولاسيَّما الآيةُ مدارُ البَحثِ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾

وقد تاحَ لي توزيعُ البَحثِ بينَ مباحثَ أَربعةٍ، جاءَ أوَّلُها لبيانِ معنَى (الدَّفعِ) وسياقِه ومقتضياتِه، وكان الثَّاني لبيانِ القيدِ الضَّابطِ لأسلوبِ الدَّفعِ؛ في حُدودِه الدُّنيا والعُليا، ثمَّ كان المبحثُ الثَّالثُ لبيانِ المَقاصدِ المَرجوَّةِ مِن وَراءِ هذا الدَّفعِ ضِمنَ الدَّائرةِ الإنسانيَّةِ الأوسَعِ، وما يترتَّب على ذلكَ مِن تَصنيفٍ حَضاريٍّ للأُممِ، وجاءَ المَبحثُ الرَّابعُ أخيراً عَرضاً لمنطلَقاتٍ نظريَّةٍ ومُقتَرحاتٍ عمليَّةٍ تَحفُّ بالفَلسفةِ الكَامنةِ في الآيةِ المحوريَّةِ محلِّ البحثِ، وتنبثقُ عَنها في إطارِ الفَلسفةِ القرآنيَّةِ عموماً، بما يُفعِّلُ ويُعمِّقُ فِكرةَ السَّلامِ العالَميِّ.

---

(١) فصِّلَت: ٣٤.

(٢) وأعني بالفلسفة هَهُنا طريقةً في الفهمِ والحياة.

المقدمة :

لَم يَزَل الأملُ في (سلام عالَميٍّ) أَملَ الإنسانِ الأَكبرَ في ماضيهِ وحاضرِه، وفَحواهُ : رجاءٌ في أنْ يَنزِعَ العالَمُ عَن تبنِّي فلسَفاتِ الصِّدامِ والصِّراعِ ولُغاتِ التَّعادي والخِصَام، لِيُغِذَّ السَّيرَ جادّاً في تحرِّي فلسَفاتِ السَّلامِ والوِفاق، رَغبةً في أنْ يتحرَّرَ مُستقبلُ الإنسانيَّةِ من عَنائها الأكبر؛ عناءِ الخَوفِ وغُلَواءِ القلَقِ المُتعاظِمَينِ تَعاظُمَ أَسلحةِ الفتكِ وأسبابِ الدَّمارِ والبَوار، تلكَ التي اجتَرَحَتْها بَهيميَّةُ الإنسانِ يَوماً ما، وما تَزالُ، فأَمسَتْ تُهدِّدُ وُجودَهُ البشَريَّ بإطلاقٍ.

أمامَ بُرَحاءِ هذه الرُّؤيةِ الاستشرافيَّةِ المُوجِلَة، وفي غمَراتِ هذه الحِقبةِ التَّاريخيَّةِ العَجفاء، يَفزَعُ الإنسانُ –بطَبيعةِ الحالِ– إلى مَصدَرٍ مُتَجالٍّ مَعصُوم، يَسترشدُه ويُسائلُه، وأيُّ مُشيرٍ أَصدَقُ مِن القُرآن؟!: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[1]، وأَنا فيمَا هَهُنا رُحتُ أُسائلُ القرآنَ: هَل مِن سَبيلٍ إلى ذلكَ السَّلامِ العالَميِّ؟ ومَا المَنهَجُ المُفضي إلَيه؟

فما هُو إلَّا أَنْ أَظفَرني منهُ بعاصِمٍ مَنهَجيٍّ، ومِعيَارٍ مُبيْن، رأيتُني أَفِيءُ إلَيه كُلَّما تاهَتْ بيَ المَسالكُ وتجاذبَتْني الفلسَفاتُ والمَذاهب، فإذا أَنا في طُمَأنينةٍ وأَمَانٍ.

نَعَمْ، كانَ جوابُ القُرآن هَهُنا عميقاً بليغاً واسِعاً، شأنه في عُموم أجوبَتِه وسائرِ أَساليبِه في الخِطاب؛ رُغمَ إيجازِ العِبارةِ ومَيْسورِ الذِّكر ولَطافةِ البيانِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2].

ومِنْ ثَمَّ، جاءَ هذا البحثُ مُحاولةً لاستفتاحِ آفاقِ هذه العبارةِ القرآنيَّةِ المُعجِزَة الباقية، عبرَ قراءةٍ معرفيَّةٍ تكتَنِهُ ما اندمَجَتْ عليه من فلسفةٍ راقية، تتمازجُ فيهَا الأبعادُ الأخلاقيَّةُ والحضاريَّةُ والإنسانيَّةُ معاً، وتترافَدُ وتتكاملُ عارِجةً بقارئِها ومدَّكِرِها في مَعارِجِ السَّلامِ العالَميِّ المَنشُود، إنْ في دُنيا الأفرادِ أو في دُنيا الحضاراتِ والأُمَم.

ثمَّ لا يَخفَى أنَّ هذه الفلسَفةَ المَذخورةَ في مَنطوقِ ذلك النصِّ القرآنيِّ ومَفهومِه هيَ في

---

(١) النِّساء: ١٢٢.
(٢) فصِّلَت: ٣٤.

الميزانِ الشَّرعيِّ مَنهجٌ قُرآنيٌّ واجبُ القَفْوِ والاتِّباع وجوبَ سائِرِ فرائضِ الإسلام، ممَّا عليه قِوامُ الدِّينِ، وبه صلاحُ الإنسان.

وهكَذا، فإنَّ مقصُودَ البحثِ –على الجُملة– تفهُّمٌ لذلكَ النصِّ وما شَاكلَهُ من آياتٍ تُخاطبُ الإنسانَ على الخُصوصِ بمُمارسَةِ الدَّفعِ بالحُسنَى خطاباً أكيداً، إذ جاءتْ على سَبيلِ الأَمرِ القاضِي بالوُجوب.

وظنِّي أنَّ هذه **المُمارسةَ** الواجبةَ ليستْ تُؤدَّى أداءَها الأقوَمَ ما لَم تَستَقِم علَى **مُدارسةٍ** تأصيليَّةٍ، تجلُو أمامَها مراشِدَ التَّطبيق، وتنفي عنها خطَلَ الفهمِ، وتُجنِّبُها خطأَ الأسلوب.

هذا ما رامَ البحثُ اجتلاءَهُ والوقوفَ على معالمِه، من طريقِ ما يتَهدَّى إليهِ من بيِّناتٍ ودلائلَ تُوحيها آيُ القُرآنِ الكريم في هذَا المَساق.

وفي سياق الكلامِ على **الدِّراساتِ السَّابقة** لَم أقِفْ – في حُدودِ ما أحاطَ به اطِّلاعي – على دراسةٍ مفردةٍ قائمةٍ برأسِها حولَ خُصوصِ الموضوعِ والآيةِ المُتناوَلةِ بالبحثِ، على أنِّي لا أُعمِّم حكمَ الافتقادِ في هذا البابِ، فعدمُ الوجدان لا يقتضي عدمَ الوجودِ كما يُقالُ.

أمَّا **المنهجُ المتَّبعُ** في هذا البحثُ فهو (منهجُ التدبُّر القرآني)، وأعني به في لُغةِ البحوثِ اليوم تفهُّماً للآيةِ محلِّ البحث، وتتبُّعاً للآيِ ذواتِ الصِّلة بالآية الأمِّ، أي على نحوِ الاستقراءِ والاستنتاج، بما يدلَّان عليه من:

١– تحليلٍ لغويٍّ ومعرفيٍّ للنُّصوصِ، بتَوسُّلِ العربيَّةِ، وصَحيحِ الحديثِ والأَثرِ[1]، وأُصُولِ الاستنبَاطِ.

٢– وإعادةِ تركيبٍ للمعطَياتِ والمعاني في مَسيلِ بحثٍ منطقيِّ الترتُّب والإفضاءِ

(١) وما كانَ يَنزِلُ عَن رُتبةِ الصَّحيح فكنتُ أَسوقُهُ لا على سبيلِ الإفرادِ في تَأصيلِ مسألَةٍ ما، بلْ على سبيلِ الإتباعِ والإدراجِ في أَصلٍ صحيحٍ معَ التَّنبيهِ على ذلكَ حيثُ يَلْزَم، جرياً على سَنَنِ الرِّوايةِ المُقرَّرة في علومِ الحديث.

بين مسائله. وأنا –في هذا– مُوقنٌ بأنَّ القُرآنَ كلٌّ بيانيٌّ مُكتَمِل، لَم يدَّعِ أَمراً إلَّا وكانَ لهُ علَيه مِن ذاتِه دَليلٌ، أَي مِن داخلِه، بمَا يَستَغنِي بِه عن دلائلَ خَارِجةٍ وموضوعاتٍ مُضافَة[1]، علَى أنَّ ذلكَ ليسَ يُغنِي عَن بيانِ النبوَّةِ وبيانِ العربيَّة، فهُما منَ القُرآنِ كالشَّيءِ الواحِد.

وقد تاحَ لِي – باديَ الرَّأي – **تخطيطُ البحثِ** في أَربعةِ مباحثَ، على النَّحوِ الآتي:

المبحثُ الأوَّل: مفهومُ الدَّفعِ في بيانِ القُرآن (تحريرُ محلِّ البحث)، وفيه:

– المطلبُ الأوَّل: سياقُ المفهومِ ومعناه.

– المطلبُ الثَّاني: مقتضياتُ المفهوم.

– المطلبُ الثَّالث: مَنبَهةٌ لازمةٌ.

المبحثُ الثَّاني: القيدُ العامُّ لمنهجِ الدَّفعِ الإنسانيِّ، وحدودُ هذا القيد، وفيه:

– المطلبُ الأوَّل: أوجُه التَّنصيصِ على هذا القيد.

– المطلبُ الثَّاني: حدودُ هذا القيد؛ أدناهُ وأعلاه.

المبحثُ الثَّالث: مقاصدُ منهجِ ادفَعْ بالتي هيَ أحسَن، وفيه:

– المطلبُ الأوَّل: الوِجْهةُ المُبتغاة.

– المطلبُ الثَّاني: العاقِبةُ المُتوخَّاة، ولها مقصِدان:

المقصِدُ الأوَّلُ: بثُّ رُوحِ الإيلافِ في حضَارةِ الإنسَان (السَّلام العالَميّ).

المقصِدُ الثَّاني: المَيزُ بينَ الدَّفعِ الحضاريِّ والدَّفعِ شبهِ الحضاريِّ.

---

(١) انظُر: الإتقَان: لجلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبي بكر السُّيوطي (ت: ٩١١م): ٢/ ٤٦٧ و٤٨٨، تَحقيق: سعيد المندُوب، بيرُوت، دار الفِكر، ١٩٩٦م.

المبحث الرَّابع: مُنطلَقاتٌ ومُقترَحاتٌ في سَبيل السَّلام العالَميِّ

– المطلبُ الأوَّل: مُنطلَقاتٌ نظريَّة لازمةٌ.

– المطلبُ الثَّاني: مُقترَحاتٌ عمَليَّة متمِّمَة.

ثمَّ **الخاتمةُ:** وفيها صفوةُ القولِ في هذا البَحث ونتائجُه.

وأَنا في هذا البَحثِ أقولُ ولكنْ لا أقطَعُ القولَ، إذْ لا يَحسُنُ القطعُ بباحثٍ، ولا سيَّما في القضَايا التي تَزدادُ عُمقاً بِما تَزدادُ به شَرحاً، ولِذا فأَنا أَعرِضُ الكلامَ عَرضاً دونَما تحكُّم، وقد حملَني علَى إيرادِه حُسنُ النيَّةِ وخُلوصُ الطَّويَّة، للنَّاسِ عامَّةً، وللمؤمنينَ خاصَّةً، ولا آمَنُ علَى نَفسي الزَّلَلَ فيما كتَبتُ، ولكنْ رجائي إلَى القارئِ الكريمِ أنْ يأخذَ لنفسِه ما كانَ صواباً، وأنْ يَدَعَ لي ما رآهُ خطأً، وأَحسَبُني قد أَنصَفتُه بِهذا، فليُنصِفنِي كما أَنصَفتُ.

واللهُ المُستعانُ وإلَيه المآبُ.

المبحثُ الأوَّل:

مفهومُ الدَّفعِ في بيانِ القُرآن

(تحريرُ محلِّ البحث)

لا جرمَ أنَّ مَن يتدبَّرُ بيانَ القُرآنِ لسُنَنِ التَّفاعُلِ الحضَاريِّ بينَ عُموم البشَر يلْحظُ أنَّ علَّةَ إمضَاءِ هذَا التَّفاعُلِ الحضَاريِّ هيَ **المُسالَمَةَ الإنسانيَّة**، والمسالَمَةُ فيما أرَى تَعني **وقفَ المُشاكَسَة** بكلِّ صُنوفِها ودرجَاتِها[1]، فإن اطَّردَتْ تلكَ العلَّةُ بينَ البشَر فللقُرآنِ في هذا البابِ تشريعٌ شاملٌ ومُحكَمٌ لا يقتضِي المقامُ بسطَهُ[2]، أمَّا إذا انعكسَتْ تلكَ العلَّةُ –وأَعني أنَّها انقلبَتْ إلى النَّقيض[3]، وهُو (المُشَاكسَةُ) بكُلِّ صنُوفِها ودرجَاتِها– فإنَّ هذَا يقتَضي مِن ثَمَّ (تَوقُّفَ الحُكمِ) أيْ الإعراضَ والتَّولِّي، أو (انعكاسَهُ) أيْ الدِّفاعَ والمُدافعَة:

١– أمَّا **الإعرَاضُ أو التَّولِّي**: ففعلٌ سلبيٌّ يقْتَضي نفيَ جِنسِ التَّفاعُلِ الحضاريِّ، بمَعنَى اعتزالِ الطَّرَفِ المُشاكِس واجتنَابِه: ﴿**فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ**﴾[4] ﴿فَنَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾[5].

---

(١) المُقابَلةُ بين المُسالَمة والمُشاكَسة صَنيعٌ قرآنيٌّ تجدُه في قوله تعالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الزُّمر: ٢٩).

(٢) ثمَّة أمرٌ ينبغي التنبُّه إليه، وهُو أنَّ تحقُّقَ العلَّة في الفرع المَقيس قد يكونُ أقلَّ وضُوحاً منهُ في الأصل المَقيس عليه، وليسَ في هذا مَا يَمنعُ استقامةَ التَّعليل، لأنَّ المنصُوصَ عليه دائماً يكُونُ أوضحَ في الدِّلالة على العلَّة، وهذا يُوجبُ أن يكونَ تحقُّقُها فيه أوضَح، ويُسمَّى إلحاقُ الفَرع بالأصل هُنا (قياسَ الشِّبْه)، وقَد نصَّ الشَّافعيُّ رحمهُ اللهُ في رسالته على هذا فقالَ: (أنْ يكُونَ الشَّيءُ لهُ في الأُصُول أشباهٌ مُختلفَة، فيُلحَقُ بأولاهَا به وأكثَرِهَا شِبْهاً فيه). الرِّسالة: للشَّافعيِّ: ص٤٧٩. وبناءً على هذا، تكونُ الحضارةُ التي يغلبُ عليها طَابعُ المُسالَمة؛ دَولةً أو أفراداً، محلاً صَالحاً لإجراء وجوه التَّواصل والتَّفاعُل الحضاريِّ، وتكونُ الحضَارةُ (أو شبهُ الحضارة على ما سَيأتي بيانُه) التي يغلبُ عليها طابعُ المُشاكَسة لاحقةً بما أثبتناهُ أعلاهُ من حال انعكاس العلَّة.

(٣) ولَستُ أقصدُ انتفاءَها أو ارتفاعَها أو انعدامَها كما في الدِّلالة الأصوليَّة للانعكاسْ، فانعدامُ العلَّة يَقضي فيما يَقضي بانقطاع التَّفاعل والتَّواصُل مطلَقاً، إنْ معَ الأفراد أو معَ الحضارات الأُخرى، لافتقاد المدخَل التأسيسيِّ للتَّواصل (التَّعارُف)، وهذَا يَعني حينئذٍ إمَّا الجهالَةَ بالحضارة الأخرى، أو معرفتَها معرفةً مغلُوطةً أو مظنونةً.

(٤) النِّساء: ٦٣.

(٥) الصَّافَّات: ١٧٤.

٢- وأمَّا **الدِّفاعُ أو المُدافعَةُ**: ففِعلٌ إيجَابيٌّ يَقْتَضي الدَّرْءَ والمُكافحَةَ والحمَاية[١]، وهيَ جِماعُ المعاني الَّتي جاءتْ بها آيُ القُرآنِ الكريمِ في هذا المَورِد.

المطلبُ الأوَّل: سِياقُ المفهُومِ ومَعناه:

نبَّهَ القُرآنُ الكريمُ علَى شأن المُدافعَةِ باعتبارِها سنَّةً إلهيَّةً ماضيةً في مواضِعَ ستَّةٍ، مازَ بها دورَ الإلَهِ في تَحريكِ هذه السُنَّةِ من دَورِ الإنسَان، وبناءً علَيهِ، غَدَتْ سنَّةُ المُدافعَةِ في مَفهُومِهَا القُرآنيِّ مركَّبةً من طابِعَين نظَريَّيْن:

- أحدُهُما: **طَابِع سُنَنيٌّ ناجِزٌ (قدَرٌ)**: وهذا يحرِّكُه الفِعلُ الإلهيُّ، ونُبِّهَ علَيهِ في آياتٍ ثلَاث:

١- ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

٢- ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٣].

٣- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[٤].

هذِه الثَّلاثُ الآياتُ ورَدَتْ في سيَاقِ الحديثِ عَن المُقاتلَةِ والمُكافَحَةِ كما ليسَ يخفَى،

---

(١) يُقالُ: دفعَهُ يدفعُهُ دَفعاً ودِفاعاً، مَنعهُ أو أزالهُ أو دَرأَهُ، وأصلُه الضَّربُ باليدِ للإقصَاء عن المَرام، وإذا عُدِّيَ بعَن اقتَضى معنَى الحمَاية، يُقالُ: دَفعتُ عَنه المكرُوه دَفعاً ودِفاعاً، ودافعتُ عَنه المكرُوهَ دِفاعاً. انظُر: مادَّة (دفع) في: العَين والصِّحاح واللِّسان.

(٢) البقرة: ٢٥١.

(٣) الحجّ: ٤٠. قرأ نافعٌ وأبو جعفر ويَعقوبُ في الموضعَين؛ البقرَة والحجّ: (ولَولَا دِفاعُ)، مصدَر (دفعَ) ثلاثيًّا، نحو: كتبَ كتاباً، أو مصدر (دافعَ)، كقاتلَ قتالاً. وقرأ الباقُون: (ولَولَا دفْعُ). انظُر: إتحاف فُضلاء البشَر في القراءات الأربعةَ عشَر: لشهاب الدِّين الدِّمياطي: ص٢٠٧.

(٤) الحجّ: ٣٨. قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ويَعقُوب: (يَدْفعُ)، أسندَ إلى ضَمير اسم الله تعالَى لأنَّه الدافعُ وحدَه. وقرأ الباقُونَ: (يُدافعُ) إسناداً إليه تعالَى علَى جِهة (المُفاعلَة) مُبالغةً، أي يُبالِغُ في الدَّفع عَنهُم. انظُر: إتحاف فُضلاء البشَر: للدِّمياطي: ص٣٩٩.

فالأُولَى جاءَتْ تَعقيباً علَى مَلحَمةِ داودَ علَيهِ السَّلَامُ وجَالُوت، والأُخرَيانِ جاءَتا معَاً في سياقٍ واحدٍ عامٍّ يأذَنُ بالقتالِ، أيْ (بالدَّفع)، حالَ الظُّلم، علَى وجهِ الإباحةِ إثْرَ الحَظرِ، وفي المواضِعِ جميعَاً يُنسَبُ الفعلُ فيهِ إلى الله؛ تَهيئةً لدوَاعيهِ، أو تحيُّناً لظَرفِه، ثُمَّ يُوجَّهُ في صالحِ حمَايةِ الحقِّ ونُصرَةِ أهلِه، سنَّةً إلهيَّةً مطَّرِدَةً.

– ثانيهمَا: **طَابِع سُنَنيٌّ مشروطٌ (تكْليف):** وهذا يحرِّكهُ الفعلُ الإنسَانيُّ، وجاء قَاصِراً علَى مَعنيَيْنِ تكليفيَّيْن:

١– علَى مَعنَى **الدَّفعِ بالحُسنَى**: أيْ مَا يُجانِسُ العفوَ والإحسانَ، وذلكَ في آيتَيْن اثنَتَيْن: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[1]، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[2].

٢– أو علَى مَعنَى **الدِّفاعِ**: أيْ الذَّودُ عَن النَّفسِ ومَا يلُوذُ بها، بالقَدرِ الَّذي يَندَفِعُ بهِ المكرُوهُ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾[3].

المطلبُ الثَّاني: مُقتَضياتُ المفهُوم:

وأعني بالمقتضيات: أموراً أربعة، هيَ: دلالةُ الوَزنِ الصَّرفيِّ، ووُجودُ دافعٍ، ومَدفُوعٍ بهِ، ومَدفُوعٍ عَنه. وبيانُها كما يأتي:

– **أوَّلاً:** المُدَافَعةُ **مُفاعلَةٌ** من دفَعَ ودافَعَ، وتَقتَضي المُشارَكةَ، ولكنْ من حيثُ إنَّ اللهَ هُو محرِّك هذه المُشارَكةِ بين النَّاس ومُديرُها بَينهُم علَى اختلَافِ أصقَاعِهم وأزمَانِهم، لا مِنْ حيثُ كونُه جلَّ شأنُهُ طرَفاً فيها، فهذَا مُحالٌ.

وتَقتَضي (المُفاعلَةُ) – أيضاً – مُوالاةً ومُتابعَةً واستِمرَاراً في الفِعلِ، أيْ أنَّ هذه

(١) المؤمنون: ٩٦.

(٢) فصِّلت: ٣٤.

(٣) آل عمران: ١٦٧. أمَّا (القتالُ في سَبيل الله): فَلإعلاء رايةِ دينِه وصَونِ كَلمَتِه، وأما (الدِّفاعُ): فللذَّودِ عَن شُؤون الدُّنيا وحاجَاتِها التي بهَا قِوامُ المعَاش ودوامُه. انظُر: تَفسيرَ الرَّازي: ٩/ ٦٩.

السُّنةَ لا تَفْتأُ عامِلَةً ومُتحرِّكةً علَى امتدَادِ الزَّمنِ التَّاريخيِّ.

– **ثانياً: الدَّافعُ** في سُنَّةِ المُدافعَةِ النَّاجزة (القدريَّة) هُو (الفِعلُ الإلهيُّ) علَى التَّحقيقِ، أمَّا (الفِعلُ الإنسَانيُّ) فعلَى المجَاز، وهذَا تأويلٌ يُراعى فيهِ الجانِب العقَديُّ، باعتِبارِ أنَّ الله هُو الفاعلُ المُطلَقُ علَى الحقيقَة. أمَّا التَّأويلُ الَّذي يُراعَى فيهِ الجانِبُ اللُّغويُّ البلَاغِيُّ أو الظَّاهِريُّ : فيَنسِبُ الفِعلَ إلى اللهِ علَى سَبيلِ المجَازِ، وإلى النَّاسِ علَى سَبيلِ الحقيقَةِ أيْ المُباشرَة.

وأمَّا الدَّافعُ في سُنَّةِ المُدَافعَةِ المشروطة (التَّكليفيَّة) : فهُو (الفِعلُ الإنسَانيُّ) لُغةً وظَاهِرَاً.

– **ثالثاً:** والنَّاسُ في سنَّةِ المُدافعةِ النَّاجزة (القدريَّة) بينَ طرَفين أو **جَبهتَيْن**:

١– جبهةِ (**الدَّافع**) علَى المجَازِ العقديِّ: أيْ (مَدفُوعٍ بهِ)؛ يَدفعُ اللهُ بهِ، وهُم ذَوُو الحقِّ والعَاملُونَ عليهِ وفي سَبيلِه، والحاضِرونَ في سَاحِهِ أبَداً[1]؛ ولِهذا المَعنَى كانُوا أهلاً لِميسَم (الحضَارة) بما يدَّخرُه من تفوُّقٍ ورُقيٍّ.

٢– جبهةِ **المَدفُوع**: وهُم أشْياعُ الباطِلِ منَ الظَّالمينَ والمُعتَدين، وهَؤلاء يَنحطُّونَ عَن استئهَالِ ميسَم الحضَارَة إلى ميسَم (شِبْهِ الحضَارَة)[2]، والشِّبْهُ هَهُنا لا يَعنِي مُحاكَاةَ المُشبَّهِ بهِ، بَلْ يَعني مَسخَ معنَاهُ وتَشويهَ مَبناه[3].

– **رابعاً: المَدفُوعُ عنهُ**: وهُو المحذُورُ الذي يَنفيهِ الصَّانِعُ عزَّ اسمُهُ عَن صَنعَته، أيْ عَن النَّاسِ والكونِ والتَّاريخِ معاً، بواسطَةِ سنَّةِ المُدافعَة، وهُو هُنَا (**الفَسَادُ**)؛ عَاجِلُه وآجِلُه، بكلِّ إسقَاطاتِهِ الفكريَّةِ والماديَّةِ والبيئيَّةِ والأخلاقيَّةِ، كمَا يدلُّ علَيهِ مَفهُومُ قولِهِ

---

(١) وتَضمُّ هَذه الجبهةُ الأنبياءَ والمُصلحينَ ومَن تقيَّلهُم وقفَا أثرَهُم في جَعلِ (المُسالَمة) محورَ أنماط التَّفاعُل الحضَاريِّ كافَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ (البقرَة:٢٠٨)، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (النِّساء:٦٩).

(٢) انظُر: الحضَارة مفهوماً إسلاميَّاً: د. محمُود عكَّام: ص٧.

(٣) جرياً معَ تَعبيرِ عليٍّ رضيَ الله عنهُ لأهل العراق: (يَا أشباهَ الرِّجالِ ولا رِجال). انظُر: الرَّوض الأُنف: للسُّهيلي: ٢/١٤٢.

تعالَى ومَنطوقُهُ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1]، أيْ الأرضُ ومَن علَيها وما علَيها، ويدخُلُ في مَعنَى الفسادِ كلُّ مَا يصدُقُ عليهِ اسمُ الفسَاد، مَعنويًّا كانَ أو مَبنويًّا.

المطلبُ الثَّالث: مَنْبَهةٌ لازِمة:

إذا كانَتْ سُنَّةُ المُدافعَةِ في بُعدِها القدريِّ النَّاجز تَقتَضي وجُودَ جَبهتَين مُتقابِلَتَيْن، فهذَا **لا يَقتَضي بَينَهما تَكافُؤاً** مِن حيثُ أصَالةُ الوجُودِ وقوَّتُهُ، أيْ أنَّ التقابُلَ بينَ رايتَي الجبَهتَين ودَولتَيْهما تَقابلٌ عدَميٌّ لا وجُوديٌّ، فرَايةُ الحقِّ ودَولتُه في حَقيقةِ الوجُودِ وتْرٌ لا شَفْعَ لهُ، أمَّا رايةُ الباطلِ ودولتُه فرَهنٌ بغَيبُوبةِ الحقِّ وانحسَاره، ثمَّ لا تلْبَثُ أنْ تَذويَ وتضْمحلَّ بمُدافَعةِ دَولةِ الحقِّ لها: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]

وبتَعبيرٍ آخَر: الحقُّ في المنظُورِ الإسلاميِّ ذُو مَركزيَّةٍ مُطلَقةٍ تجعلُه معيارَ الصِّحَّةِ والبُطلانِ في سَائرِ الأفكَارِ والمبادِئ، والحقُّ المَركزيُّ في دائِرَةِ التَّفاعُلاتِ الحضَاريَّةِ -كمَا استبانَ- هُو (**المُسَالَمَةُ الإنسَانيَّة**)، فهُو العلَّةُ التي نيطَتْ بهَا جميعُ أوجُهِ التَّفاعلِ الحضَاريِّ بينَ الأفرادِ والأُمَم على ما بيَّناه مطلعَ البحث، ولئِن كانَ للمصَالِح والمنَافعِ وَجهُ اعتبَارٍ في صِياغَةِ ذلكَ الحقِّ إنَّهُ وَجهٌ لا يُغيِّر مِن معَالمِ الحقِّ (العلَّة) شَيئاً، ولا يكونُ علَى حِسَابِهِ بحَال.

وحَريٌّ بالتَّنبيهِ أيضاً أنَّ حرَكةَ المُدافَعةِ بمَعناهَا **المَلحَميِّ** في المنظُورِ الإسلَاميِّ **ليسَتْ الأداةَ الوَحيدةَ للتَّفاعلِ العالميِّ بين البشر**، أو بعبَارةٍ أُخرَى: لَيسَتْ تُغطِّي مسَاحةَ حرَكةِ الحضارات كلَّها، فهُناك سُننٌ تَفاعُليَّةٌ أُخرَى تُقاسِمُها الحضُورَ، من مثْلِ المُداولَةِ والتَّعارُفِ والتَّعاوُن، في حِين عمَّمها النَّفعيُّونَ[3] والمادِّيونَ والجدَليُّونَ على

---

(١) البقرة: ٢٥١.

(٢) الإسراء: ٨١.

(٣) البراغماتيَّة (Pragmatism) من جانبِهَا النَّفعيِّ بوجهٍ خاصٍّ، لا من جانبهَا العمليِّ. ويتَقاطعُ معها في هذا الجانِب التَّصوُّرُ الدَّاروينيُّ (Darwinism) القائمُ على فكرةِ (تنازُع البقَاء)، وكذا التَّصورُ

مسَاحةِ الحركةِ التَّاريخيَّةِ بجملتِها.

وهُنا **مكمَنُ الفَرقِ** بَينَ التصوُّرِ الإسلاميِّ للمُدافعَةِ وبينَ التَّصوُّرِ المادّيِّ والجدليِّ لهَا، فالإسلَامُ قَد أناطَ التَّفاعُلَ بينَ الحضَاراتِ بعلَّةِ (المُسالمَةِ) كمَا تقرَّر، ومن ثَمَّ لَم يكُن (الصِّراعُ)[1] مآلاً مِن مَآلاتِ هذَا التَّفاعُلِ إلَّا في حدٍّ محدودٍ، وهو ما كانَ لِرَفعِ ظُلمٍ أو دَفعِ اعتِداء.

أمَّا التَّصوُّرُ المنفعِيُّ أو الوصُوليُّ، وكذَا التَّصوُّرُ الجدَليُّ بشقَّيهِ؛ المثاليِّ والمادِّيِّ، فقد أناطَا التَّفاعُلَ بعلَّةِ (المَنفَعة)، وسوَّغا في سبيلِها شتَّى الوسائلَ، وإنْ بطريقِ (القوَّةِ والقَهر)، فأحلَّا بذلكَ قيمةَ (**القُدرةِ**) أو (**القوَّة**) الثَّانويَّةِ محلَّ قِيمةِ (**الحقِّ**) الأصليَّة، فكَانَت القُوَّةُ من جرَّاءِ ذلكَ ميزَاناً يُقاسُ بها البشَر، وأداةً تُنالُ بهَا الحقُوقُ أو تُغتَصَبُ، ومِن ثَمَّ، كانَ (الصِّراعُ والصِّدامُ)، إنْ في عالَمِ الأفكارِ أو في عالَمِ الأشياء[2] مآلاً مُتوقَّعاً،

النيتَشويُّ (Nietzscheism) المؤسَّسُ علَى (تفرُّد الأقوَى)، وهي عينُ الفلسفةِ التي ارتكزت إليها نظريَّات الصِّراع الحضاريِّ المعاصرة، من أمثال نظريَّة الأمريكيِّ المعاصر صموئيل هنتينغتون Samuel Huntington (ت:٢٠٠٨م) في (صِدام الحضارات)، والأمريكيِّ الآخر ذي الأصل الياباني فرانسيس فوكوياما Franceis Fukuyama (وُلد:١٩٥٢م) في (نهاية التَّاريخ والإنسان الأخير).

(١) أرى في صَدري حرَجاً من استخدام هذا المصطلَح لكَونه مُثقلاً بأدبيَّات التُّراث العَلمانيِّ، غيرَ أنِّي أسوقُه على سَبيل المُشاكلة أسوةً بقَوله تعَالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفَال:٣٠)، وقد يُحتجُّ علَى ذلكَ بأنَّ الصِّراعَ قائمٌ حتَّى بينَ أطراف الإيمانِ علَى المُستَوَى المذهبيِّ، فلِمَ التَّحرُّج؟، أقولُ: ليسَ هذا صراعاً حقيقيّاً، أيْ ليسَ قائماً علَى خلاف جوهريٍّ بينَ حقٍّ وباطل، بلْ هو تدافعٌ أو صراعٌ ناهضٌ علَى تأويل أو توهُّم خلاف، ولذَا كانَ مذمومَاً منهيّاً عنهُ، وسمِّيَ (تنازُعاً): ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ (الأنفَال:٤٦)، ومن ثَمَّ، أُمِرَ المُؤمنُونَ بكفِّه، وتحويل وجهته تُجاهَ الباطل الحقيقيِّ لا الموهُوم، أيْ القائم علَى الظُّلم والاعتداء: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ (البقرَة:١٩٠).

(٢) ولعلَّ في الواقعِ الماركسيِّ أو الهيغليِّ نفسه ما يثبت قُصورَ فكرة الصِّراع (Struggle) أو (Conflict)، ويخطِّئ تعميمَها في كلِّ وجُوه الحياة الحضَاريَّة بينَ الثَّقافات والأُمم، وذلكَ حينمَا نشهدُ تعايُشاً بينَ بعض المتناقضات، من مثل تعايش الشُّيوعيَّة نفسها معَ الرَّأسماليَّة، علَى نحو الوفاق بينَ السُّوفييت والأمريكيِّين، وفي (يُوغسلَافيا أيَّام كانتَ قبل ١٩٩٢م) صبغةٌ منَ الشُّيوعيَّة تسمحُ بالتَّعايُش معَ الرَّأسمالية، في صُورة من صُور ما يُسمَّى بالماركسيَّة الجديدَة (new–marxism) التي أنتجَها الرُّوسُ بعدَ (ستَالين Joseph Stalin ت:١٩٥٣م)، وأنكرَها آخرُونَ متعصِّبون لخطِّ (ماركس) و(إنغلز) بكلِّ حماسَة. ثمَّ إنَّ فرضَ ديكتاتوريَّة طبقةٍ من الطَّبقات أو حضَارةٍ من الحضَاراتِ والقضاءَ علَى الخُصوم

بلْ حتميًّاً لأمثالِ هذه التَّفاعُلات، وعلَيه، قهرَ القَويُّ الضَّعيفَ[1]، وتمرَّد الضَّعيفُ علَى القَويِّ، ودارَتْ رحَى الصِّراع على البشَر جميعًا، بلْ أُسْدِلَتْ علَيه هالَةُ القدَاسة والحَتميَّة التَّاريخيَّة، حتَّى غدَا في أحلام الجدَليِّين وأوهَام النَّفعيِّين ضَربةَ لازِب ليسَ عنها مُنتدَحٌ، ثُمَّ لَمْ ينتَهُوا حتَّى فَلسفُوهُ وأنشَؤوهُ قانُونًا تاريخيًّاً عامًّاً، وكأنَّه مُسلَّمٌ لا شِيةَ فيه ولا شَيْن!!.

لُبابُ القَولِ: إنَّ للدَّفعِ أو المُدافَعةِ في مفهُومِهَا القُرآنيِّ حيثيَّتيْن:

١- أمَّا مِن حَيثُ هيَ سُنَّةٌ ناجزةٌ قائمةٌ (قدَرٌ): وهيَ التي أُنيطَ فيها أَمرُ الدَّفعِ بالله وحدَه، فهِي كسَائرِ الأقدارِ المُحيطَةِ بالإنسَانِ، أمرُها إلى الله، يُصرِّفُها متَى يَشاءُ، وبالكَيف الَّذي يَشاءُ، فيُلجِئُ الإنسانَ إليها متَى استُجمِعَتْ دوَاعيها وحانَ أجلُها، أيْ أنَّهَا غيرُ داخلةٍ في عِدادِ مَسؤوليَّاتِ الإنسَانِ وتكاليفِه، وليسَتْ أيضاً مَنهَجاً يُطالَبُ بانتهاجِه علَى الدَّوامِ.

٢- أمَّا مِن حَيثُ هيَ سُنَّةٌ مشروطةٌ حضَاريَّةٌ (تكليفٌ): وهيَ التي أُنيطَ فيها أَمرُ الدَّفعِ بالفعلِ الإنسانيِّ، وهيَ محلُّ بحثِنا هذا، إذْ هي المقصودةُ في قولِه تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[2]، فعلَى النَّاسِ أن يتفكَّرُوا فيهَا ويهتَمُّوا لِتَحريكهَا في أَحدِ اتِّجاهَيْن؛ أوَّلهُما أرقَى منَ الآخَر:

أمَّا الأوَّلُ: فهُو الدَّفعُ بالحُسنى، أيْ بالعَفوِ والإحسَانِ ومَا يَحكيهِما، وعليهِ مدارُ هذا البحث.

وأمَّا الثَّاني: فهُو المواجهَةُ الدِّفاعيَّة، وهُو ما صَاغهُ القُرآنُ في مَفهُومِ (القتَال)[3].

بأساليبِ العُنفِ والعُدوانِ لا يتَّفقانِ ومَا يُناديِ به الماركسيُّون أنفسُهم من عَدالةٍ في الحقُوق. انظُر: التَّاريخ والمؤرِّخون: د. حسين مُؤنس: ص١٣٤.

(١) (Superman) و (Subman) بحسَبِ اصطِلاح (نيتشه).

(٢) فصِّلَت: ٣٤.

(٣) القتلُ والقتالُ كَريهٌ في الفطَرِ السَّليمة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ (البقرَة: ٢١٦)، وإن اتَّفقَ وقامَ هذا المكروهُ فينبغِي تَعاطيه حلًّا استثنائيًّاً لا إستَراتيجيًّاً -وهو حقٌّ طبيعيٌّ باعتراف النُّظُم الوضعيَّة ذاتها وانظُر مثلاً المادَّة (٥١) من ميثاق الأمم المتَّحدة الموقَّع سنة ١٩٤٥م-، إذْ لَو كانَ القتلُ أو

المبحثُ الثَّاني:

القَيدُ العامُّ لمنهجِ الدَّفع الإنسانيِّ وحدودُ هذا القَيد

المطلبُ الأوَّل: أَوجُهُ التَّنصيصِ على هذا القَيد:

في سُنَّةِ المدافعَةِ التَّكليفيَّة يحصُرُ القُرآنُ الكريمُ فعلَ الإنسَانِ في حدُودِ (**الحُسنَى**) دائِماً، وينوِّعُ أساليبَ التَّنصيصِ على هذا القيد العامِّ والدَّائم بأوجُهٍ تحكي لزومَه ووجوبَه، وهي:

١- الأمرُ القاضي بالوجوب: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[1]، ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[2].

القتالُ مطلُوباً بالذَّات أو هدَفاً إستراتيجياً في شَريعة الإسلَام لمَا تمثَّن القرآنُ علَى المؤمنين بكفَايتهم إيَّاه: ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ (الأحزَاب:٢٥). وثمَّةَ فارقٌ مُهمٌّ وهو: أنَّ القتلَ غيرُ القتال؛ (فالقتلُ) ابتداءٌ بالعُدوانِ بلا مسوغ، وفعلُه (قتلَ)، ويَرمي إلى القَضاء على الآخر وتَهديم كيانه وإفسَاد وجُوده، وهُو محرَّمٌ ذميمٌ، فَضلاً عَن أنَّ أمرَه بيَد الله لا بيَد الإنسَان: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفَال:١٧). أمَّا (القتالُ) فهُو ردٌّ للقَتل ودَفعٌ للعُدوان والظُّلم والإفساد فحَسْب، وفعلُه (قاتلَ قتالاً ومُقاتلةً): ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التَّوبة:٣٦)، والكافُ هاهُنا تعليليَّة، أيْ لأجل أنَّهم يُقاتلونكُم كافَّة، ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾ (البقرَة:١٩١)، والأصلُ في هذا السِّياق قولُهُ تعالَى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرَة:١٩٠)، واستُثنيَ من هذا قولُه تعالَى: ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فهُو بمَعنَى قتلَهُم، كما قالَه الثَّعالبيُّ وغيرُه. انظُر لهُ: فقه اللُّغة: ص٣٦٤. أمَّا (آيةُ السَّيف) التي لا يَبرحُ بعضُهُم يَنسخُ بهَا (آيات العَفو) جملةً فمُقيَّدةٌ بحال نكْث العَهد ظُلماً وعُدواناً، ورَاجع سياقَ الآية وسباقَها ولحاقَها في سُورة التَّوبة (٣-٧) فسُيوقِفُك علَى هذه الحال المُقيِّدة، إذْ لا يُعقلُ أن تُعطَّل أو تُنسخَ نحوُ (مئة وخمسين) آيَةً تَحثُّ علَى العَفو والإعراض والإحسَان لصَالح آية واحدة ذات مَورد خاصٍّ (انظُر مثلاً: النَّاسخ والمنسُوخ: لابن حَزم: ص٢٧). هَذا، فَضلاً عَن أنَّ القتالَ بهذا المفهُوم البغتَويِّ غدا مُتعذِّر التَّطبيق أو عَسيرَهُ في راهن العصر. والمُهمُّ الذي أرومُهُ من وراء هذا أنَّ رُوحَ الإسلام في كلِّ حال وفي كلِّ عصر لا تنفكُّ تُمدُّ النَّاسَ بصيَغ حضَاريَّة وطرائقَ للفهم والحياة (فلسفات) تُبوِّءُ حضَارَةَ الإنسَان مُبوَّأ صدقٍ وعزَّة وأمن إنْ هُو أخذَ بهَا. للتَّوسُّع انظُر مثَلاً: نواسخُ القُرآن: لابن الجوزي: ص١٧٣ فمَا بعدَها، ونظريَّة الحرب في الإسلام: الشَّيخ محمَّد أبو زهرة: ص١٢ فما بعدَها، والتَّطرُّف والاعتدَال: د. محمُود عكَّام: ص٨٧ فما بعدَها.

(١) المؤمنون: ٩٦.

(٢) فصِّلت: ٣٤.

٢- يَمتَدحُ ذلكَ الفعلَ ويُشيدُ بهِ قَائلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[١].

٣- بلْ يُغرِي النَّاسَ بالتَّخلُّقِ به، وبتَفويضِ شَأنِ الدَّفعِ والمُدافعَةِ إلى تَدبيرِ الله وحكمتِهِ، فيقُول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[٢].

والمقصِدُ الأبلَغُ والأجلُّ مِن وَراءِ ذلكَ: إزهاقُ روحِ الاستِكبَارِ والتَّجبُّر والوِصَايةِ العَنيفَةِ بينَ البَشر؛ بعضِهِم علَى بعضٍ.

المطلبُ الثَّاني: حدودُ هذا القيد؛ أدناهُ وأعلاه:

أمَّا حدُودُ قيد (الحُسنَى) في هذَا البابِ، وهيَ أَبلغُ الإحسَانِ، فتَختلِفُ باختِلاف الشَّيءِ المَدفوعِ أو المُحسَنِ بهِ، بحسبِ الآتي:

- **فإن كانَ هذَا المدفُوعُ حقًّا للطَّرفِ المُقابِل**: وجبَ بذلُهُ لهُ، بلا مُطْلٍ ولا غَمطٍ ولا بَخْس، ويكونُ ذلكَ مِن بابِ (**العَدْلِ**) الواجبِ تُجاهَ النَّاسِ جَميعاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[٣].

- **وإن لَم يكُن المدفُوعُ حقًّا للطَّرفِ المُقابِل**: فهُو لا يخلُو مِن أوصافٍ ثلَاثة:

١- إمَّا أن يكُونَ نافِعاً للمَدفوعِ لهُ ولا ضُرَّ فيهِ علَى الدَّافعِ ولا جَور: فدَفعُهُ حينَئذٍ:

إمَّا بذلٌ إيجابيٌّ: أيْ سمَاحةٌ وسَخَاءٌ وكرَمٌ: (إنَّ اللهَ كريمٌ يحبُّ الكُرمَاء)[٤]، والحقيقَةُ أنَّ النَّفعَ هاهُنا قسمَةٌ بينَ الدَّافعِ والمدفُوع.

---

(١) الرَّعد: ٢٢. والكلامُ على طريقةِ المدح أو الذمِّ ينزلُ منزلةَ العمومِ أيضاً على المقرَّر من علمِ الأصول.
(٢) الحجّ: ٣٧-٣٨.
(٣) المائدة: ٨.
(٤) حديثٌ صحيحٌ على ما ذكره الألبانيُّ، أَخرجهُ الطَّبرانيُّ في الكبيرِ والأوسَط، ورجالُ الكبير ثقاتٌ. كذا في مجمَع الزَّوائد: ٨/١٨٨. وأخرجهُ التِّرمذيُّ (رقم ٢٧٩٩) بلَفظِ: (يُحبُّ الكَرَم) وهو غريبٌ، وغيرُهُم.

وإمَّا بذلٌ سَلبيٌّ: أيْ إعراضٌ وتَركٌ (وذرٌ)[1] وتَولٍّ: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[2]، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[3]، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ. وَذَكِّرْ﴾[4]، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[5].

٢- وإمَّا **أن يكُونَ نافِعاً للمَدفوعِ لهُ ولكِنْ فِي بَذلِهِ بعضُ ضُرٍّ أو جَورٍ علَى الدَّافِعِ**: فدفعُهُ حينئذٍ عَفْوٌ وصَفحٌ، وبينهما عمومٌ وخُصوصٌ مُطلَق[6]: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾[7]، ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾[8]، ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[9].

٣- وإمَّا **أن يكُونَ فيهِ علَى الدَّافِعِ ضرٌّ فادِحٌ غيرُ مُحتَملٍ فِي العَادَةِ**، فهُو حِينَئذٍ (ظُلْمٌ) لا مَعدَى عَن تنكُّبِهِ ومُجاهَدتِه:

- فإنْ كانَ ظُلماً **عامَّاً** واقِعَاً علَى حقِّ الإنسَان (**جِنْساً**): وجبَ رفعُهُ انتِصَاراً لمَعنَى الإنسَانِيَّة المُكرَّم: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[10]،

---

(١) يُقالُ:العَربُ أماتَتْ المصدَرَ من يذَرُ والفعلَ الماضي، فلَا يُقالُ: وذِرَهُ ولا واذِرٌ، ولكنْ ترَكهُ وتارِكٌ، وذَرْهُ تَرْكاً.

(٢) الأنعام: ٧٠.

(٣) الأنعام: ١١٢.

(٤) الذَّاريات: ٥٤-٥٥.

(٥) الأعراف: ١٩٩.

(٦) ووَجهُ الجَورِ علَى الدَّافِعِ مثلاً، أنْ يكظِمَ الغَيظَ ويجتَرِعَهُ فلَا يَتشفَّى بعقَابِ غَريمِه، وهو العفوُ، أمَّا الصَّفحُ ففيهِ زيادةُ معنًى، وهُو تركُ التَّثريبِ واللَّوم فضلاً عن ترك العُقوبةِ، وعلَى هذا يكونُ عطفُ الصَّفحِ علَى العفو عطفَ عامٍّ علَى خاصٍّ، أوَ عطفاً لَا على سبيلِ التَّرادُف بلْ علَى سَبيلِ التَّرقِّي. واللهُ أعلَم. وَانظُر: الحقَّ الإسلاميُّ: د. طه عبد الرَّحمن: ص٢٣٤، والفُروق اللُّغوية: لأبي هلال العَسكريِّ: ص١٣٧.

(٧) النُّور: ٢٢.

(٨) البقرة: ١٠٩.

(٩) الشُّورى: ٤٠.

(١٠) الشُّورى: ٤١. وكان مُقتَضى اللَّفظِ والسِّياقِ أن يقُولَ: (فذاكَ ما علَيهِ من سَبيلٍ).

ولاحِظْ اسمَ الإشارةِ إلَى الجمعِ، وكذَا ميمَ الجمعِ، يُنبيانِكَ بِهذا العُمومِ.

– وإنْ كانَ ظُلماً **خاصَّاً** واقِعاً علَى الإنسَانِ (**شخْصاً بعَينِهِ**): فالمظلُومُ بينَ خِيارَيْن، كِلاهُما مَشمولٌ بمَفهومِ الدَّفعِ:

١– إمَّا **المُسَامحةُ**: وأرقَى درَجاتِهَا المَغفِرَةُ[١]: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللهِ﴾[٢]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٣].

٢– وإمَّا **المُكافحَة**: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٤]، والسَّيِّئةُ الثَّانيَةُ وإنْ تكُنْ شَاكلَتِ الأُولَى لفظَاً إنَّهَا خالَفتهَا معنًى وسبباً، فَالأُولَى (سيِّئةٌ) علَى الحقِيقَةِ لأنَّها ابتداءٌ بالعُدوانِ والظُّلم، أمَّا الثَّانيةُ فبَاطنُها (حسَنةٌ) وإنْ بدَتْ في ظاهِرِها أو في اسْمِها (سيِّئةً)، لأنَّها رَفعٌ لذاكَ الظُّلمِ والعُدوانِ منْ بابِ (العَدْل). وهكذَا، يكونُ **مسارُ الدَّفعِ بالحُسنَى** محدُوداً بطرَفَي عَدلٍ واجِبَيْن، ومَا بَينَهُما مَراقي فَضْلٍ مندُوبٍ، كمَا في الرَّسمِ الآتي:

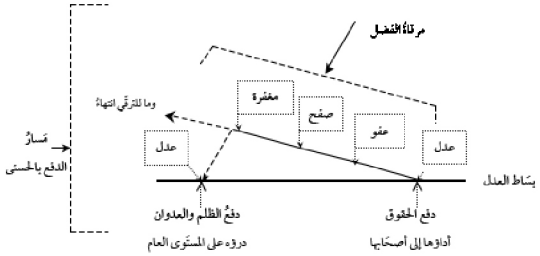

(١) المغفرةُ عَفوٌ وصَفحٌ وزيادةٌ، ولِذَا كانَت من عَزمِ الأمور، فإذَا كانَ العفوُ: تركَ العقَابِ كمَا أسلَفنَا، وكانَ الصَّفحُ تركَ اللَّوم، فإنَّ المغفِرَة: تقتضِي فوقَ ذلكَ إحسَاناً ومَزيداً، فتُغطِّي الذَّنبَ بإيجابِ المَثوبَ. ولذَلك كثُرت المَغفرةُ من صفات الله تعالَى دونَ صفَاتِ العِباد، فيُقالُ: غفرَ اللهُ لكَ، ولا يُقالُ: غفرَ زيدٌ لكَ إلَّا نادراً قليلاً. والشَّاهدُ علَى نُدرَتِه أنَّه لا يتَصرَّفُ في صفاتِ العَبد كمَا يتَصرَّفُ في صفاتِ الله تعالَى، ألَا تَرى أنَّهُ يُقالُ: استغفرتُ الله تعالَى، ولا يُقالُ: استغفرتُ زَيداً، وكذَا مَا تعدَّى به اللَّفظانِ يدلُّ علَى ما قُلنا، وذلكَ أنَّك تقولُ: عفَا عنهُ فيَقتضِي ذلكَ إزالةَ شيءٍ عنهُ، وتقولُ: غفرَ لهُ فيَقتَضِي ذلكَ إثباتَ شَيءٍ لهُ. والله أعلَم. انظُر: الفُروقُ اللُّغويَّة: للعسكري: ص١٤٧.

(٢) الجاثية: ١٤. رُويَ أنَّ الآيةَ نزلَت في عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ شتمَهُ رجلٌ من الكفَّار فأرادَ عمرُ أن يَبطشَ به. و(أيَّامُ الله): نعَمُهُ، فالرَّجاءُ علَى أصلِه، وقيلَ: أيَّامُ الله عبَارةٌ عَن عقَابِه، فالرَّجاءُ بمَعنى الخَوفِ. ولعلَّ الرَّاجحَ أنَّ المعنيَين مُرادَانِ، ومَشمولَانِ بسُنَنِ الله التي تَنتصرُ للمظلُومِ وتنتقِمُ منَ الظَّالمِ باطِّراد. انظُر: الكشَّاف: للزَّمخشَري: ٤/ ٢٩١، والتَّسهيل: لابن جُزي: ٤/ ٣٨.

(٣) الشُّورى: ٤٣.

(٤) الشُّورى: ٤٠.

هذَا المَسارُ بطرَفَيه ومِرقَاته جميعاً مَشمُولٌ بمَنطِقِ الفلسفة القرآنيَّة (ادفَع بالَّتي هيَ أحسنُ)، غيرَ أنَّ الحُسنَ يتفَاوتُ فيه بحَسبِ مُؤشِّرِ **الحكمَة** أو (**الحظِّ العَظيم**)[1]: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، هذا الحظُّ العظيمُ هو الَّذي:

– يُحدِّدُ مدَى اقترَابِ المَوقفِ الإنسَانيِّ المُتَّبعِ مِنْ سُدَّةِ (الأحسَنِ): ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[2].

– ويَهديه كذلكَ لاتِّباع (الأحسَن): ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[3]، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4].

كلُّ ذلكَ بقَصدِ الحِفاظِ علَى علَّةِ (**المُسَالَمَة**) مناطَاً في تفاعُلاتِ البشَر، وإعادَةِ اعتبارِها المركزيِّ في زحمةِ المبَادِئ والنَّظريَّات والفلسَفات. أمَّا ذلكَ المُؤشِّرُ الحكيمُ والدِّلالةُ الرَّاشِدَةُ فليسَ يظفَرُ بهَا إلَّا الَّذينَ صبَرُوا، وليسَ يُلقَّاهَا إلَّا ذُو حَظٍّ عظِيمٍ منَ الحِكمَةِ والحصَافةِ، يُلهِمُهُ نوعَ المبادَلةِ الأليَقَ، وأُسلُوبَ المقابَلةِ الأكثرَ تحضُّراً.

المبحثُ الثَّالث:

مقاصدُ منهجِ ﴿ادفَعْ بالَّتي هِيَ أَحسَنُ﴾

المطلبُ الأوَّل: الوِجْهةُ المُبتَغاة:

أمَّا الوِجهةُ المُبتغاةُ من تفعيلِ منهَجِ الدَّفعِ بالحُسنَى ومُداومَتِه والصَّبرِ علَيه

---

(١) () ذُو حَظٍّ عظيم منَ الفضائلِ الرُّوحيَّةِ والعقليَّة التي تصونُهُ عن الاشتغال بالانتقام، أو ذو حظٍّ عظيم منَ الثَّوابِ الذي أُعدَّ للمُحسنينَ. انظر: تَفسير الرَّازي: ٢٧/ ١١٠، والدرّ المنثُور: للسُّيوطي٧/ ٣٢٧، وتَفسير الطَّبري: ٢٤/ ١٢٠.

(٢) () المؤمنون: ٩٦.

(٣) () الزُّمر: ٥٥.

(٤) () الإسراء: ٥٣.

فهِيَ –في معنَاهَا الأرقَى– وَجهُ الله البَاقِي: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[1]، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[2]، وذلِكَ لِمَنْ أرادَ لصَبرِهِ دَيمُومَةً أطولَ ولدَفعِه فضيلةً أجلَّ، وبيَانُ هذَا:

أنَّ الإنسَانَ طُلَعَةٌ وُلَعَةٌ، وعملُهُ أو دَفعُهُ رَهينٌ أبداً بوجهَتِه، فلَا يلْبَثُ أن يتقضَّى حالَا يُواطِئُ وجهتَهُ أو يتَعدَّاهَا، ثُمَّ تراهُ يتَّخِذُ لهُ وجهةً أُخرى، سُرعانَ ما يُصيبُهَا فيَحُولُ عنها مِثلما حالَ عنْ سَابِقَتِها، وهكذَا، يتوقَّفُ دفعُهُ وعَملُهُ في كلِّ مرَّةٍ عندَ حَدِّ هذه الغايَةِ أو تِلْك، ثمَّ يَنقَضِي أثرُهُ بفَواتِ ظَرفِهَا المكَانيِّ أو الزَّمَانيِّ، ولكنَّ تَوجيهَ العمَلِ أيَّاً كانَ، وأَخُصُّ الدَّفعَ بالحُسنَى هَهُنا، إلَى وِجهَةٍ تتَجالُّ عَن الزَّمانِ والمكَانِ، يَمنَحُ العملَ أو الدَّفعَ أثرَاً أبلغَ ومُكْثاً أدومَ، يتَزايدُ تزايُدَ الإخلاصِ لِتلكَ الوِجهةِ المقدَّسةِ المُتعاليَة، ويَعظُمُ بقدْرِ الإبلاءِ في تتبُّعِ سَبيلِها وتحرِّي معَالِمها.

المطلبُ الثَّاني: العاقِبةُ المُتوخَّاة:

وللعاقبةِ المتوخَّاة من وراءِ منهج الدَّفع بالحُسنَى مَقصِدان:

– المقصِدُ الأوَّلُ: **بثُّ رُوحِ الإيلافِ في حضَارةِ الإنسَان (السَّلام العالَميّ):**

إنَّ منهجَ هذه الفلسفةِ في حقيقتِه قوَّةٌ مؤلِّفة، يتمثَّلُها أُولئكَ الذين يُؤمنونَ بها، ويُترجمونَها واقعاً شاخِصاً على مَسرحِ الحياة، وجُملةُ مقاصِدهم إنَّما تدُورُ في فلَكِ (**الإيلَافِ الحضَاريِّ**) الذي يَنهضُ علَى علَّةِ (المُسَالمَة)، ويَنهدُ إلَى التَّأليفِ بينَ الحضَاراتِ جُملةً، ولمِّ شَعَثِ الإنسَانيَّةِ جمَعَاء:

١– **إنْ في مُستَوى الشُّؤون الخِلافيَّة:** وهذه تُساسُ بأساليبِ الصَّفحِ والإغضَاءِ والإعذَار: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) () الرَّعد: ٢٢.
(٢) المدَّثر: ٧. أيْ لِوجهِ ربِّكَ وطلبَ رضاهُ. انظُر: المحرَّر الوجيز: لابنِ عطيَّة: ٥/ ٣٩٣.

كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

٢- أَو في مُستَوى الشُّؤونِ المُشتَرَكةِ أو المُجمَعِ علَيها: وهذِه تُساسُ بأساليبِ التَّعارُفِ والتَّعاوُن بنَحوِ ما بيَّنهُ القُرآنُ في آياتٍ مُشتَهِراتٍ.

أمَّا المقصِدُ الأجلُّ في ذلكَ الإيلَافِ الحضَاريّ فذُو شِعبَيْن:

الأوَّل: إزهَاقُ رُوحِ التَّنافُرِ والاستِكبَار والتَّجبُّر والوِصَايةِ العَنيفَةِ بينَ البشَر: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[2]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[3]، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[4].

الثَّاني: إفشَاءُ رُوحِ التَّحارُصِ والتَّراحُمِ والتَّآلُفِ بينَ النَّاسِ[5]، بلسَانِ الرِّفقِ ويَدِ الإحسان: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[6].

أجَلْ، فبِهذَا المنهجِ وحدَهُ؛ منهج الدَّفع بالحُسنَى، وبهذه الفلسفة القرآنيَّة السَّمحة، يَنعَكِسُ كيدُ الكائِدينَ، وتَخيبُ مطامِعُ المُرجِفينَ الحاقِدينَ، ثُمَّ لا يَحيقُ المكْرُ إلَّا بالمَاكِرينَ: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[7].

وعلَى تلكَ الأواصِرِ التَّراحُميَّة إذْ تَتخلَّلُ النَّاسَ أجمَعين لِتَخُطَّ ملامِحَ سلامٍ عالميٍّ منشُودٍ يتَجلَّى الرَّحمنُ بالفَضْلِ العَميمِ والرَّحمةِ الوَاسِعَة، فيَهَبُ المُسِيءَ إلى

---

(١) الأنعام: ١٠٨.
(٢) ق: ٤٥.
(٣) الغاشية: ٢٢.
(٤) الأنعام: ١٠٧.
(٥) ولاسيَّما إن علِمَ أنَّ النَّاسَ جميعاً هم أمَّةُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وإن توزَّعُوا بين (قَوم إجابةٍ أو مُتابعَة) و(قَوم دعوَة)، فالجميعُ على هذَا مُشتركونَ في (النَّاسيَّة المُحمَّديَّة)، وبذلِكَ يَستوونَ في قَدْرٍ مُشترك جامع: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سَبأ: ٢٨).
(٦) النِّساء: ١٢٥.
(٧) فصِّلت: ٣٤.

المُحسِن، ويُعافي الكافرَ بالمُؤمن[1]، **ويَدفَعُ** بالطَّائِعِ عَنِ العاصي[2]، لِيَسلَمَ المركبُ بمَن فيهِ ومَا فيهِ جُملةً واحدَةً، وتَتحرَّرَ الأرضُ منَ مَدِّ الفَسادِ الذي قَد يَطُمُّ الجميعَ بلَا استِثنَاء: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[3].

ولكِنْ، **ما حكمُ نَقْضِ وُجوه التَّفاعُلِ الحضَاريِّ بينَ البشَر**، إن في حالِ اطِّرادِ المُسالَمَةِ –وهي علَّةُ التَّفاعُل كما أشرتُ في طالعِ البَحث–، أو في حالِ انعكاسِها؟ أقولُ:

مَعنايَ بالنَّقضِ هاهُنَا نقضُ الحُكْمِ لا نقضُ العلَّة[4]، أيْ نَقضُ المكلَّفِ لِحُكمِ

---

(١) يقُول قتادَة رحمهُ الله: (إن الله يَبتلي المؤمنَ بالكافر، ويُعافي الكافرَ بالمؤمن)، وعَن عليٍّ رضيَ الله عنهُ: (لَولَا بقيَّةٌ من المُسلمينَ فيكُم لهلكتُم). انظُر: الدرّ المنثُور: ١/ ٧٦٤، وتَفسير القُرطبيّ: ٣/ ٢٦١.

(٢) وجاء في بَعض الأخبَار عن ابن عبَّاس كما في شُعب البيهقيِّ(٧٥٩٧)، ورفعهُ في تفسير القرطبي(٣/ ٢٦٠): (إنَّ الله يدفعُ بمَن يُصلِّي منَ النَّاس عمَّن لا يُصلِّي، وبمَن يصُومُ عمَّن لا يصُوم، وبمَن يُزكِّي عمَّن لا يُزكِّي، وبمَن يحجُّ عمَّن لا يحجُّ، وبمَن يُجاهدُ عمَّن لا يُجاهدُ، ولَو اجتمَعوا على ترك هذه الأشياء لَما أنظرَهم طرفةَ عَين). ويقومُ شاهداً على صحَّة هذا المعنى قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف:٨٢)، وكانَ ابنُ عمر رضي الله عنهُما يقُولُ –وفي سند الحديث ضَعفٌ–: قالَ صلَّى الله عليه وسلَّم: (إنَّ الله ليدفعُ بالمؤمنِ الصَّالح عَن مائة من أهلِ بَيتِه وجيرانه البلَاءَ)، ثمَّ قرأ ابنُ عمَر: ﴿ولَولا دفعُ الله النَّاسَ بعضَهُم ببَعض لَفسَدَت الأرضُ﴾. ويُظاهرُه في المعنَى: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح:٢٥). وقالَ مُجاهدٌ رحمَه الله: لَولا أنَّ الله يَدفعُ بمَن أطاعهُ عمَّن عصَاه كمَا دفعَ عَن المتخلِّفينَ عن طالوتَ بمَن أطاعهُ لهلكَ العُصاة بسُرعة العقُوبة. انظُر: الدرّ المنثُور: ١/ ٧٦٤، وتَفسير الطَّبري: ٢/ ٦٣٣، وتفسير الرَّازي: ٦/ ١٦٣، ومعاني القُرآن: للنحَّاس: ١/ ٢٥٥، والمحرَّر الوَجيز: لابن عطيَّة: ١/ ٢٣٨، وزاد المَسير: لابن الجوزي: ١/ ٣٠٠. وقالَ بعضُهم: (إنَّ الله يدفعُ بالكفَّار عن المؤمنين، وبالعُصاة عن المُطيعين، وبالجهَّال عن العُلماء، أي من حيثُ كونُهم حمَّالين لأنصبَة الجهالَات والمعاصي المقدَّرة في دنيا النَّاس)، وهو رأيٌ لا يخلُو من وَجاهَة. انظُر: تَفسير السُلَمي: ٢/ ٢٥.

(٣) البقرة: ٢٥١.

(٤) ولستُ أقصدُ بالنَّقض هاهُنا حرفيَّته المنطقيَّة التي تَعني: (وجودَ العلَّة ولا حُكم)، فهُو علَى هذَا مُؤذنٌ ببُطلان التَّعليل أصلاً، ثُمَّ إن نقضَ الحُكم في بَعض آي القُرآن ليسَ إبطَالاً للحُكم بالضَّرورَة، ولكنَّهُ توسيعٌ لمجاله، وتعديدٌ لصُوره علَى سَبيلِ الاختيار والاستحبَاب، فأيَّ الصُّور اختارَهَا المكلَّفُ فلَا عُدوانَ عليه ولا تثريبَ، وإنَّما يتفاوتُ المكلَّفونَ في تخيُّر (الأحسَن) تبَعاً لِحظِّ كلٍّ منَ الحكمَة وحُسنِ التَّقدير والتَّدبير.

العلَّة، بعدَم إجرَاءِ التَّفاعُلِ الحضَاريِّ المطلُوبِ حالَ قيامِ علَّتِه،سوَاءٌ في مدَارِ الاطِّرادِ،أو في مدَارِ الانعِكَاس:

١- أمَّا في مدَار الاطِّرَاد (**وحُكمُهُ التَّعاوُن**): فمتَى قامَتْ علَّةُ التَّفاعُلِ (المُسالَمَة الإنسَانيَّة) واطَّردَت وتوافَّرتْ دواعِيها وجبَ إنفاذُ حُكمِها من خلالِ تَفعيلِ التَّعارُفِ والتَّعاوُنِ وحُسنِ المُعايَشةِ والمُجاوَرة: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[١]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٢]. وعلَيه، فالذي يَستنكفُ عَن امتثالِ الحُكمِ، أيْ يَنقُضُهُ حالَ اطِّرادِ علَّتِه يُؤاخَذُ، ويُدرجُ في عِدَادِ مَن ﴿يَمنَعُونَ المَاعُونَ﴾[٣].

٢- أمَّا في مدَارِ الانعِكَاس (**وحُكمُهُ الدَّفع**): أي حالَ انعكاسِ علَّةِ المُسالَمَة وانقلابِها مُشاكَسةً مُستفزَّةً أو مُضرَّةً أو ظالمَة، حينَئذٍ يكونُ للمُتضَرِّرُ أو المَظلُوم سُلطانٌ مُبينٌ[٤]، يخوِّلهُ رفعَ الضُّرِّ ومُقاوَمةَ الظَّالمِ ودَفعَ مُشاكَستِه بإحدَى سَبِيلَيْنِ علَى وجهِ التَّخْيير:

- إمَّا بإمضَاءِ الحُكم: أيْ بالرَّدِّ في حدُود المِثْل[٥]، وهُو أخْذٌ بـ(**العَدْل**): ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[٦].

---

(١) النِّساء: ٩٤.
(٢) التَّوبة: ٧.
(٣) الماعون: ٧.
(٤) ﴿وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النِّساء: ٩١).
(٥) وتنبَّه إلى أنَّ التقيُّد في حدودِ (المِثْل) تماماً بما يعنيه من تحريمٍ أدنى زيادَة أمرٌ في غايةِ العُسر، لذا كان الأخذُ بالعفوِ أشرَفَ من جهة، وأحوطَ من جهةٍ أخرَى. فضلاً عن أنَّ الآخذَ بالعدلِ قد ضيَّعَ الفضلَ من حيثُ حفظَ العدلَ: ﴿ولا تنسَوا الفضلَ بينكم﴾ (البقرة: ٢٣٧).
(٦) البقرة: ١٩٤. لاحظْ في هذَا المَساق أنَّ الأمرَ الإلهيَّ أتَى بإعدادِ القوَّة بإطلاقِ دُونَ استعمَالها: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفَال: ٦٠)، فلَا يكونُ استعمالُها إلَّا عندَما تبلغُ الحاجةُ إليها مبلغَ الاضطِّرار الكلِّي، أيْ عندَما تجدُكَ في مَضيقٍ لا يُخرجُكَ منهُ غيرُ الدَّفعِ باليَد، أو عندَما تحطُّك المُسالَمةُ في دَرْكِ الهَوان والذِّلَّة: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمَّد: ٣٥). وضَابطُ ذلكَ كلِّه حِكمتُك وحُنكَتُكَ وجُودةُ رأيكَ، فـ(الرَّأيُ قبلَ شَجَاعةِ الشُّجعانِ / هُو

– وإمَّا بإيقَافِ الحُكم صَبْراً واحتساباً[1]: وهُو أخذٌ بأحلَى الظَّفرَين، ألَا وهُو (**الفَضْل**): ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2]، وليسَ إيقافُ الحُكم هَهُنا تَعطيلاً لهُ بوَجه، وإنمَّا غايتُهُ **تَفويضُ الحُكم لِمَن هُو بهِ أعلَمُ**: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا﴾[3]، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[4]، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[5]، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[6].

وبالتَّالي، هُو أعلَمُ بمقدَارِ انطباقِ العلَّةِ حَقيقةً علَى الطَّرفِ المُشاكِس، إذْ كثيراً ما يَبتنِي البشرُ أحكامَهُم على مَواقفَ ظاهرَةٍ أو أوهَامٍ أو ظُنُون، منْ أجلِ هذا، مَا بَرِحَ القُرآنُ الكريمُ يُؤكِّدُ ضَرورةَ التَّروِّي والتَّثبُّتِ في اتِّخاذِ الأحكامِ مَا لَم تَستَبِنْ علَّتُهَا بنَحوِ سَافِرٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[7].

والوَرعُ والحيطَةُ في هذَا البابِ يَقضِيَانِ بأنَّ (الخطَأَ في العَفوِ خَيرٌ منَ الخطَأِ في العقُوبَة)

أوَّلٌ وهِيَ المحلُّ الثَّاني) كما يقُولُ المتنبِّي، و(استَثبِتِ الرَّأيَ ولا تَقحَّم / قبلَ النَّدام لاتَ حينَ مَنْدَم) كمَا يَنصحُ ابنُ الرُّوميّ. ثُمَّ تذكَّر من بَعدُ أنَّ الدِّياناتِ عُمومَاً دعَتْ إلَى إمَاطةِ العُدوانِ وَإنْ بالقوَّةِ والسَّيف، حتَّى الدِّيانةُ المَسيحيَّةُ التي يُشاعُ بأنَّها دينُ الوَداعةِ المُفرطَة، جاءَ فيهَا علَى لسَانِ المسيحِ عليهِ السَّلام نَفسِه مُخاطباً بني إسرائيل: (لَم آتِ لأحملَ إليكُم سَلَاماً، وإنَّما أتيتُ بالسَّيف) (انظُر هَذَا المعنَى في: إنجيل برنابا: الفصل الرَّابع بعدَ المئتَين: ص٢٧٨). ومثلُها الدِّيانةُ الهندِيَّةُ التي يأخذُ علَيها كثيرُونَ طابعَ التبتُّلِ والعُزوفِ المُغرِقِ عَن الدُّنيَا، لا تخلُو هي الأُخرَى منَ الجانبِ الحربيِّ الذي يَظهرُ جليَّاً في بَعضِ نُصوصِها. انظُر: الإسلام والسَّيف: رينيه غِينون (عبد الواحد يَحيى): ص٣٠٦، ضِمن كتاب قضيَّة التصوُّف: للشَّيخ عَبدالحليم محمُود.

(١) قلتُ: صَبراً واحتسَاباً، تحرُّزاً عن أُولئكَ الخانعينَ أو المُداهنين الَّذينَ يتَسربَلُونَ بالفَضلِ والعَفو؛ إما عَجْزاً، أو رِياءً، أو مَكْرَاً (وصُوليَّةً).

(٢) الشُّورى: ٤٠.

(٣) النِّساء: ٤٥.

(٤) الزُّمر: ٤٦.

(٥) يونُس: ٤٠.

(٦) البقرة: ٢٢٠.

(٧) النِّساء: ٩٤.

[1]، وأنَّ الصُّلحَ المُجحِفَ خيرٌ منَ الانتِصَارِ الدَّامي[2]، ولا يكُونَنَّ في صَدرِكَ حرجٌ من هذَا أو رَيبٌ، فسُنَّةُ اللهِ قدْ خطَّتْ على جيدِ التَّاريخِ أنَّ العَاقبةَ في صَالحِ المظلُومِ أبداً، وأنَّهُ مُنتَصرٌ ولَو بَعدَ حِين[3]: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ[4] إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[5].

– المقصدُ الثَّاني: المَيزُ بينَ الدَّفعِ الحضاريِّ والدَّفعِ شبهِ الحضاريِّ:

المَيْزُ بنَحوٍ عَامٍّ حِكمَةٌ جليَّةٌ في كثيرٍ من سُنَنِ الحياةِ ومسَاقاتِها، غيرَ أنَّهُ في مسَاقِ الدَّفعِ والمُدافعَةِ يبدُو أشدَّ جَلاءً، أمَّا الطَّرفَانِ المُتدافِعانِ لإحقاقِ هذهِ الحِكمَةِ في هذَا المسَاقِ فهُما: (الحضَاراتُ) مِن جَانبٍ، و(أشباهُ الحضَاراتِ) مِن جَانبٍ آخَر:

١– فالحضَاراتُ: هيَ الجماعَاتُ الإنسَانيَّةُ ذاتُ النَّزعَةِ الهابيليَّة، أيْ التي تَنتَهِجُ (المُسَالمَةَ الإنسَانيَّة)[6] بنَحوٍ مُطَّرد[7] وحَقيقيٍّ، وبدَاعٍ دينيٍّ صَحيح، يَدعُوهَا إلَى (الاستقامَةِ) و (التَّقوَى) علَى الدَّوام: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[8].

---

(١) أخرجَ التِّرمذيُّ (رقم ١٤٢٤) وغيرُهُ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: (ادرؤُوا الحدُودَ عَن المُسلمينَ مَا استطعتُم فإن كانَ لهُ مخرجٌ فخلُّوا سبيلَهُ، فإنَّ الإمامَ أن يُخطِئ في العَفو خيرٌ من أن يُخطِئ في العقُوبَة).

(٢) انظُر: مبَادئ القَانون الدَّولي العامِّ في الإسلام: د. محمَّد عبد الله دراز: ص٨٣.

(٣) في الحديثِ الشَّريف يقولُ صلَّى الله عليه وسلَّم: (دَعوةُ المظلُوم تُحمَلُ علَى الغَمام، وتُفتَّحُ لها أبوابُ السَّماواتِ، ويقولُ الربُّ تباركَ وتعالَى: وعزَّتي لأنصرنَّكَ ولَو بَعدَ حِين). أخرجهُ ابنُ حبَّان في الصَّحيح (٨٧٤)، والتِّرمذيُّ (٣٥٩٨)، وأحمدُ (٩٧٤١)، وآخرُون.

(٤) لا بمعنَى المُثلَةِ والتَّمثيل، بلْ بمَعنى اختيارِ القتلِ.

(٥) الإسراء: ٣٣.

(٦) وأخلِقْ بهَذا المَعنَى أن يكونَ مقياسَ التَّحضُّر، بدلَ مقَاييسِ التطوُّرِ الآليِّ أو القوَّةِ المتعجرفَةِ المتسلِّطَة. فليسَ كلُّ نموٍّ تقْنيٍّ تحضُّراً، والخرافةُ التي تقولُ: (النُّموُّ التِّقنيُّ هوَ التَّحضُّرُ أو التَّقدُّم) إنْ هيَ إلَّا (توراةُ الدَّمار)، كمَا عبَّر (كوردِيل هل Cordell Hull وزير الخارجيَّة الأمريكيَّة الأسبَق ت:١٩٥٥م)، والتَّطلُّعُ إلَى موقفٍ إنسَانيٍّ غيرِ خاضعٍ (للتِّكنُولُوجيا)، كهذَا الذي أخذَ به المنظُورُ الإسلَاميُّ، ليسَ رجعيَّةً أو انهزَاميَّةً بوَجهٍ، بلْ هوَ موقفٌ جريءٌ وجهدٌ بُطوليٌّ علَى حدِّ عبارةِ الأمريكيِّ؛ الفرنسيِّ الأصل (رينيه دوبو Rene J. Dubos ت:١٩٨٢م). انظُر لهُ: إنسَانيَّة الإنسَان؛ نَقد علميٌّ للحضَارةِ المادِّية: ص٦٥.

(٧) أي بنحو(إستراتيجيٍّ Strategic) ثابتٍ على امتدادِ محطَّاتِهَا الحضَاريَّة، وفي بُنكِ (أصلِ)مبادئِها الأخلاقيَّة.

(٨) التَّوبة: ٧.

٢- وأمَّا **أشبَاهُ الحضَارات**: فهيَ الجماعَاتُ ذاتُ النَّزعَة القَابيليَّة، أيْ التي لا تَنزِعُ عَن الظُّلم والعُدوَان، ولا تَستَحْيي أن تتَّخذَهُما مطيَّةً لبلُوغ آرابِها الخاصَّة، أثَرةً وطَمعاً، أو لإقصَاءِ المُقابِلِ وإفنائِه، حِقْداً وحسَداً، ودَاعيها في ذلكَ:

- إمَّا (**هوًى**) فاسِدٌ يَحبسُها في دائِرَةِ المنفَعةِ الخاصَّةِ والأثرَةِ المقيتَة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1].

- وإمَّا (**طَواغيتُ**) تُزيِّن لها ما تأتيه، حتَّى تُحرِّفَ لها الدِّينَ نفسَه، بلْ تُعاوِدُ صَوغَهُ في قَوالِبَ ضيِّقةٍ وتَصوُّراتٍ مُتعصِّبة، ولا تَنفكُّ تحوطُها بهَالةٍ مِن التَّقديسِ حتَّى تبلُغَ بِهَا مبلَغَ التَّأليه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2].

إنَّ هذه الأديَانَ المُصطَنعةَ أو تِلكَ الصِّيغَ الضِّيقةَ التي تَتحصَّنُ بها أشبَاهُ الحضارات وتَنوطُ بها مسارَها التاريخيَّ إنْ هيَ إلَّا أمانيُّ داحِضَةٌ فنَّدهَا القُرآنُ بمثلِ قَوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾[3]، ومِن ثمَّ، ليسَتْ تَصلحُ بحَالٍ أن تكونَ موجِّهاً أميناً أو صَادِقاً لحرَكة الحضَارة في دُنيا النَّاس.

مِن أجل هذَا، أهابَ اللهُ بأهلِ الأديَانِ المُسالمة، أي التي تُحرِّمُ الظُّلمَ والعُدوانَ بكلِّ أشكالِه وفي كلِّ أحيانِه، أهابَ بهِم أن يقُومُوا في جبهَةٍ حضَاريَّةٍ واحدَة، يُواجِهونَ بِها عُتوَّ أشبَاهِ الحضَارات[4] **ويَدفعُونَ** بِهَا صَولَتَهُم وتَهديمَهُم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾

---

(١) الجاثية: ٢٣.
(٢) التَّوبة: ٣١.
(٣) النَّجم: ٢٣.
(٤) ولا ارتيابَ لذِي قلبٍ أنَّ (إسرائيلَ الصُّهيونيَّة) ومَنْ في واديهَا يمثِّلونَ هذَا الوجودَ الحضَاريَّ المسيخَ بامتيازٍ، وقَصدي بمَن في واديهَا كلُّ من يُمدُّهَا في طغيانِهَا راضياً وداعماً، وكذَا كلُّ من يَزدلفُ إليهَا مُداهناً أو فَرقَاً، وقبلَ هؤلاءِ وهؤلاءِ مَن غرَسَهَا في قلبِ الوطنِ العربيِّ غدَّةً سرطانيَّةً يفصمُ بِهَا طرَفَيهِ؛ الآسيَويِّ من الإفريقيِّ، ويَثِلُّ عَرْشَ الدِّينِ الذي يتربَّعُ عليه.

وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[1]، وبهذه المُدافعة يَبينُ المُسَالمُ مِنَ المُعتَدي، وتمتازُ الحضَارةُ من شِبهِ الحضَارة؛ **نظريًّا وعمليًّا**:

١- **نظَريًّا:** إذْ يَتمُّ الميزُ بينَ الشُّعوبِ بإعادةِ تَرتيبِهم وفقَ مراتبِ سُلَّم التَّحضُّرِ الإنسَانيِّ؛ بحيثُ يكونُ أقربُ النَّاسِ إلى سُدَّةِ الحضَارةِ أبلَغَهُم قفوًا لنَهجِ المُسَالمةِ الإنسَانيَّة، ويكونُ أبعدُهم عَن سدَّةِ الحضَارةِ أمعنَهُم ندًّا عَن نَهجِ المُسالمَةِ الإنسَانيَّة.

٢- **عَمليًّا:** وعلَيه، تُقصَى أشبَاهُ الحضاراتِ عمليًّا عَن الإسهامِ في صناعةِ تاريخ الإنسان بصُورتِهِ الخيِّرَة، ويَفقدُ أثرُها صفةَ المُكُوثِ والثُّبوتِ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2]، وبذَا تُصانُ أخلاقُ الحضاراتِ وثقَافاتُها وأدبيَّاتُها وسياسَاتُها ومصالِحُها مِن عَدْوى أشبَاهِ الحضارات، وتَحقُّ في دنيا النَّاسِ سُنَنُ اللهِ واقعاً ومنهجَ حياة، من مثلِ قَولِه تعالَى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[3]، وقَولِه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[4].

وهكذا، فإنَّ القدرةَ الإلهيَّةَ الغالبةَ دائماً في صَالِحِ الحقِّ وأهلِه، وأعني في صالِحِ المُتحضِّرينَ أمماً وأفراداً، مَا لَم يَزِغْ هؤلاءِ باقترافِ قِيَمِ التَّقهقُر من ظُلمٍ وعُدوانٍ ونحوِهما داخلَ حضَارَتِهم، فإنهُم سَيتحوَّلونَ حينها من جَبهةِ **الدَّافِعِ** المُعانِ إلَى جَبهةِ **المَدفُوعِ** المُعانِ علَيه، وستَخورُ من جرَّاءِ هذَا الزَّيغ قُواهُم المادِّيةُ والمعنويَّةُ التي كانَتْ تُمِدُّهم بهَا يدُ القُدرَة، وستَختلِطُ من جرَّاء ذلكَ الاقترافِ مواقعُ الصَّلاحِ والفسَادِ علَى

(١) الحجّ: ٤٠. جملةُ: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ صفةٌ، والغالبُ في الصِّفةِ الواردةِ إثْرَ جُملٍ مُتعاطفةٍ فيها أن ترجعَ إلَى مَا في تلكَ الجُملِ منَ الموصُوفِ بالصِّفة، فلذلكَ قيلَ برُجوعِ صفةِ (يُذكرُ فيهَا اسمُ اللهِ) إلَى الأربعةِ المذكُوراتِ قبلَها. وفائدةُ هذَا الوَصفِ الإيماءُ إلَى أنَّ سببَ هَدمِها أنَّها يُذكرُ فيهَا اسمُ اللهِ كثيراً. انظُر: تَفسير الطَّبري: ١٧/ ١٧٤، وتَفسير الرَّازي: ٢٣/ ٣٦، والمُحرَّر الوَجيز: لابن عطيَّة: ٤/ ١٢٥.

(٢) الرَّعد: ١٧.

(٣) الأنفال: ٣٧.

(٤) الحجّ: ٣٨.

الأَرض، حتَّى يبيتَ النَّاسُ في حَيرةٍ ظَلماء، لا تَنقَشِعُ مَا لَم يَفِئْ أهلُ الحقِّ إلى الموقِعِ الذي فَارقُوه، عندهَا، فاللهُ ناصرُهم ومُظهِرُهُم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[1]، وإلَّا فسيُجازَونَ بمَا اقترَفوا، دونمَا تَزويرٍ أو مُحاباةٍ:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

المبحث الرَّابع:

مُنطلَقاتٌ ومُقترَحاتٌ في سَبيل السَّلام العالَميِّ

من مَوقع الإيمانِ والمَعرفةِ الإيمانيَّةِ لَنا أَنْ نقول: إنَّ الفلسفةَ المُستكِنَّةَ في قولِه تعالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ تَحكي الأسلوبَ الأَمثلَ والشَّكلَ الأَرقَى للتَّفاعلِ والتَّواصُلِ بين النَّاس، بما يَستوعبُ ويتجاوزُ عمومَ الصِّيغِ الحياتيَّة التي تطرحُها فلسفاتٌ أُخرى في مفاهيمَ متعدِّدةٍ من قَبيل: التَّعايش، واللَّاعُنف، والتعدُّديَّة، ونَحوِها، ومزيَّة القرآنُ هَهُنا أنَّه يَطرحُ فلسفتَه لا علَى نَحوِ السِّياسةِ المرحليَّة المَوقوتة، بلْ علَى نَحوِ المَبدئيَّة الدَّائمة (الاستراتيجيا).

وقد أَلْمَعنا فيما سلفَ إلَى أنَّ الفلسفةَ المُخزونةَ في قولِه تعالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ليسَت فلسفةً طوباويَّةً حالِمةً، أيْ ليسَتْ نظريَّةً مجرَّدة، وإنَّما بالإمكانِ –من خلالِ سياقِها وبيئتِها القرآنيَّة– استيحاءُ جُملةٍ من السُّلوكاتِ الفرديَّة والدَّوليَّة علَى المُستَوى الحضاريِّ، تمثِّلُ جانباً مُهمَّاً من ملامحِ المشروعِ القرآنيِّ في سَبيلِ السَّلام العالميِّ، وفيما يأتي جوانبُ من هذه الملامحِ، تَحكي خُطوطاً عريضةً في هذا البابِ، تَحفُّ بالفلسفةِ التي نَسوقُها، وتتوزَّع بين منطلقاتٍ نظريَّةٍ ترتكنُ إلَيها، وبينَ مُقترَحاتٍ عمليَّة كأنَّها انبثاقاتٌ عَنها، علَى أنَّ بعضَ هذه المقترَحاتِ وإنْ يَبْدُ أنَّه قصيٌّ المنالِ أو

(١) الحجّ: ٤٠.
(٢) آل عمران: ١٦٥.

عَصيٌّ على التَّطبيقِ فإنَّه بلا رَيبٍ يُعبَّدُ ويُذلَّلُ أمامَ إرادةٍ إنسانيَّةٍ جادَّةٍ ومستمرَّة، وأَعني أنَّ ذلك وإنْ كان يَبعُدُ أن يكونَ قريباً في مستَقبلٍ منظورٍ، فإنَّما هو كالهدفِ المأمولِ والمَرغوبِ، ينبَغي أَن تَرميَ إلَيه وتَصبوَ نحوَه كلُّ أُمَّةٍ مُتحضِّرة، وأَن يكونَ لَها حُدوةً علَى العَملِ في سَبيلِه.

المطلبُ الأوَّل: مُنطلَقاتٌ نظريَّة لازِمة:

١- تأصيلُ وتعميقُ جذورِ الانتماءِ النَّظريِّ إلى ما يدَّخره القرآنُ من فلسفاتٍ تزيدُ في معنَى الحياةِ حياةً، أَي تمنحُها من ذاتِها معنىً حقيقياً: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]، وذلكَ بقَصدِ التَّهيئةِ النَّفسيَّة والإيمانيَّةِ لاقتحامِ الواقعِ الجديدِ والإسهامِ في صناعتِه.

إنَّ التَّاريخَ يكشِفُ أنَّ جميعَ الحضاراتِ كانَت تائقةً إلَى تحقيقِ السَّلامِ العالميِّ، وكثيرٌ من الحروبِ والاتِّفاقيَّات كانَتْ بهذا الغرَض، غيرَ أنَّها كثيراً ما تبوءُ بالفشَل، وما ذاكَ إلَّا لأنَّ السَّلام لا يُمكِنُ أَن يُفرَضَ من خارجِ النَّفس، السَّلامُ يكونُ في الدَّاخل، أَي أنَّ السَّلام العالميَّ مُنبثقٌ عَن السَّلامِ النَّفسيِّ للفَرد، والفردُ هو وَحدةُ المجتمعِ والحضارة، وإذْ يَنعمُ الفردُ بالسَّلام الداخليِّ يَعمُّ السَّلامُ العالميُّ تِلقائياً، فإنَّ الغابةَ الخضراءَ أشجارُها كلُّها خضراءُ.

2- توجيهُ الفِكرِ إلَى المُشترَكِ الإنسانيِّ والثَّقافيِّ؛ إنْ بينَ الأفرادِ أو بينَ الحضاراتِ، والبحثُ المتَّصلُ عَن مفرداتِ هذا المُشترَك، والحرصُ علَى تَوسيعِ حُدودِه ما استقامَ إلى ذلكَ سَبيلٌ أو قامَ علَيه دليلٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[2]، فإنَّ السَّلامَ العالميَّ المنشودَ والمُمكنَ في عالمٍ متعدِّدِ الحضاراتِ يستلزمُ التَّرفُّعَ عَن مَنطقِ الأُحاديَّةِ أو الاستقطابِ الأُحاديِّ، وقَبولَ مَنطقِ التنوُّعِ علَى أنَّه سنةٌ إلهيَّةٌ قائمةٌ، ثمَّ علَى أنَّه المناخُ المناسبُ لتَمحيصِ الأفكارِ واختبارِها، فاكتشافُ الذَّاتِ يُناسِبُه الوسَطُ المتنوِّعُ أكثرُ من الوسَطِ المُتجانِس.

---

(١) الأنعام: ١٢٢.
(٢) الحجُرات: ١٣.

٣- التحرُّرُ الذِّهنيُّ ما أَمكنَ من دُوَّامة الفعلِ وردَّة الفعل، والتَّفكيرُ في استحداثِ تفجُّرٍ كُمونيٍّ يُظهِرُ مكنونَ القُدُراتِ في كلِّ حضارةٍ إنسانيَّةٍ بنَحوٍ ذاتيٍّ، أَي بما يُمليه علَيها منطقُ الفعلِ والحاجةِ الذَّاتيَّة، بالأساليبِ المُمكنةِ والمُتاحَة: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[١].

٤- الاشتغالُ الفكريُّ علَى إقناعِ الغربِ بضرورةِ الاعترافِ بقانونِ (تداولِ الحضَارات): ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٢]، عسَاهُ يَعِي أنَّ الحضارةَ ليسَت وَقْفاً علَيه[٣]، وأنَّ ما يُسمَّى بالحضارةِ الغربيَّة اليومَ هو في حقيقتِه وامتدادِه التَّاريخيِّ نتاجٌ إنسانيٌّ عامٌّ أَسهمَ العربُ والمسلمونَ فيهِ بحظٍّ وفيرٍ، فإنَّ ذلكَ يُمهِّد نظريَّاً لقَبولِ فكرةِ السَّلام العالميِّ.

5- تلمُّسُ بدائلَ فكريَّةٍ وصِيَغٍ حضَاريَّةٍ سوَاءٍ بينَ الحضَاراتِ، لا تَحملُ رُوحَ تَحدِّي الآخَر، فَضلاً عَن قَهرِه ومُعادَاته، كمَا لا تَستأثرُ بمَنظُورٍ إنسَانيٍّ علَى حسَابِ آخَر، والمَطلوبُ في ذلكَ باختصَار: صِيغةٌ خلَاصيَّةٌ[٤] تحفَظُ للكَائنِ حقُوقَهُ ووجُودَهُ في المُستوَى السَّليمِ والمُسَالم، ويتلاقَى علَيها الكلُّ الحضَاريُّ تلاقِيَ الكُلِّ علَى الكُلِّ، في تَوليفَةٍ إنسَانيةٍ بدِيعَة، لا تَنهضُ ولا تتَتابعُ إلَّا إذا أحسَّتْ كلُّ جماعَةٍ بشَريَّةٍ بأنَّها جُزءٌ منَ الكلِّ المأمُول، وليَسَتْ هيَ كُلِّيَّةً في ذاتِهَا، فإذا مَا شَعرَ العَربيُّ أو الأعجَميُّ -أيَّاً كانَ- بأنَّ وطنيَّتَه تُشكِّلُ جُزءاً ليسَ يُجتزَأُ منْ ذلكَ الكُلِّ، فإنَّ وَطنيَّتَهُ هذه ستقُودُه إلى تكييفِ نَفسِه معَ هذَا الكلِّ العُضويِّ علَى رُغمِ خصَائصِه الوَطنيَّةِ وتقَاليدِه المائزَة: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾[٥].

---

(١) الإسراء: ٨٤. ويُحتَملُ أنَّ المَعنَى في قولِه: (يَعمَلُ) أَمرٌ وإنْ جرَى بصيغةِ الخبَر.

(٢) آل عمران: ١٤٠.

(٣) وهو ما أخذَ يُدركُه كثيرٌ من الغربيِّين منذُ زمَن. انظر مثلاً كتاب: مَشروع أخلاقيّ عالَمي: للمفكِّر السُّويسري هانس كينغ، ترجمة: جوزيف معلوف، بيروت، دار صادر، ١٩٩٨م.

(٤) ثمَّةَ أعمالٌ فلسفيةٌ عديدةٌ أصَّلت لفكرةِ السَّلامِ العالميِّ بطرائقَ ومنطقيَّاتٍ مختلفة، من مثل: نَحو مشروعٍ للسَّلام الدَّائم لكانط، والعدالة في زَمن الحرب لبرتراند راسل، والتَّسامح لأوشو، وغيرها. ولا أَرتابُ في أنَّ المُنصفَ سيجدُ أنَّ فلسفةَ القرآنِ في هذا المساقِ قد زادَت علَى ما أنتَجَه هؤلاء جميعاً من حيثُ عمقُ الأفكارِ وشُمولُها وصدقُها وواقعيَّةُ الأسلوب وحدودُ المُسالَمة، ثمَّ هي فلسفةٌ تتَّسعُ لعمومِ النَّاس ويتَّسعُ لَها عمومُ النَّاس.

(٥) المؤمنون: ٥٢.

٦- لعلَّ جميعَ ما تقدَّم يَقتَضي إعَادةَ النَّظَرِ في أسَاليبِ التَّربيَةِ والتَّنشئَة، وتَصحيحاً في أنمَاطِ الرُّؤى والطَّبائعِ المكتَسَبة، وانفتاحاً أبلَغَ علَى ذلكَ التَّوجيهِ القُرآنيِّ الرَّحيب: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

المطلبُ الثَّاني: مُقترَحاتٌ عمَليَّة مُتمِّمة:

١- الوقوفُ العمَليُّ علَى مدَى جدِّيةِ الدُّولِ -أياً تكُن- في تبنِّي إرادةِ السَّلام العالميِّ، وتَعرُّفُ جهودِها في هذا الميدان، لتَحديدِ صيغةِ الدَّفعِ الحضاريِّ الملائم حيالَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾[١].

وربَّما يكونُ من المُجدِي في هذا المَجالِ أيضاً إقامةُ جسورِ التَّعاونِ مع حَضاراتِ الشَّرق التي تَسعى لتوكيدِ مكانتِها في مُقابلِ الحَضارةِ الغربيَّةِ الزَّاحفة، من أمثالِ: الصِّين والهندُ واليابانُ[٢]، ودولُ شرقِ آسيَة، وكذا شُعوبُ الجنوبِ عُموماً[٣].

ومِن المُجدِي واللَّازم في هذا السِّياقِ أيضاً التَّعاونُ معَ تلكَ الأصواتِ العاقلةِ المُنبعثَةِ من الأجواءِ الغربيَّةِ نفسِها داعيةً إلى التَّسالُم العالميِّ، ورعايةِ كلِّ ما فيهِ خيرُ الإنسانِ وصَونُ حُرمتِه وحُرمةِ خَصائِصه الثَّقافيَّة والحضَاريَّة.

٢- الرَّغبةُ المتَّصلةُ إلى ذَوي القرار العالَميِّ في استيلادِ معاهدةِ سِلمٍ عالميٍّ واضحةٍ ومُلزِمةٍ تقضي على كلِّ احتمالٍ لحربٍ جديدة، أَي ألَّا تنطويَ نوايا عاقديها علَى أَمرٍ من شأنِه إثارةُ حَربٍ جديدة، إنْ انسياقاً وراءَ مَطمعٍ شخصيٍّ أو انزلاقاً نحوَ مطمحٍ شيطانيٍّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[٤]. وبالتَّالي، لستُ أَعني بالسَّلامِ العالميِّ هَهُنا مَا تُقرُّه أُطروحاتُ

---

(١) النِّساء: ٩٤.

(٢) ذكرَ الأميركيُّ صَموئيل هنتينغتون (٢٠٠٨م) هذه الحضارات على أنَّها من أهمِّ الحضاراتِ المنافسة للهَيمنة الغربيَّة، انظر: صِدام الحضارات: صموئيل هنتينغتون: ص٣٩٦.

(٣) مثلَ دولِ مجموعة الـ(٧٧)، التي أُسِّسَت منذُ (١٩٦٤م) للحفاظِ على ما يُسمَّى بـ(الدُّولِ النَّامية) الواقعةِ في إفريقيةَ وآسية وأمريكا اللَّاتينيَّة، وقَد وصل عددُها إلى ما يزيدُ على (١٣٠) دولة.

(٤) البقرة: ٢٠٨.

الفكرِ الغربيِّ مِن مَواثيقَ ودَساتيرَ كثيراً مَايَنتهِكُها هُو قبلَ غيرِه، وتَكونُ كذلك مُدخَلاً لإنتاجِ نقيضِها (الحروب)، وإنَّما المقصودُ بالسَّلام هَهُنا شكلاً مِن أَشكالِ الحقيقةِ العامَّةِ المُطلَقةِ، عَريَّاً عن الإشارةِ لأيِّ معنًى عرقيٍّ أو جُغرافيٍّ أو قَوميٍّ، فهو سَلامٌ إنسانيٌّ في المقامِ الأوَّل، يَستوعبُ كلَّ هويَّةٍ ويُجاوِزُها في آنٍ معاً.

٣- ثمَّةَ بُرهانٌ عمَليٌّ واقعيٌّ علَى جدِّية الدُّول في تبنِّي السَّلام، أَلا وهُو تقليصُ حجمِ التَّسلُّح والإنفاقِ العسكريِّ الهائلِ في العالَم[١]، وإنْ كان لابدَّ فإلى حُدودِ ما يَحمي السَّلامَ فقط، فإنَّ هذا التَّذخير العسكريَّ المُريبَ لا يُدلِّلُ بحالٍ علَى رغبةٍ صادقةٍ في السَّلام، وليسَ يُناسِبُ كذلكَ فلسفةَ الدَّفعِ بالحُسنَى، وقد أثبتَت تجاربُ التَّاريخ أنَّ هذه التَّكاليفَ الجنونيَّةَ لَم تكُن لِتَمنحَ أصحابَها إحساساً حقيقياً بالأَمان، بلْ كانَت تَحبسُهم في أَجواءٍ من الهلَع والجزَعِ والفزع، وكثيراً ما كانت تُغويهِم وتُغريهِم بالتوغُّدِ ونكْثِ العهودِ وابتداءِ العدوانِ والاستكبار: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٢]، ولعلَّ في كلمةِ ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ إلْماعةً إلى أَحدِ أهمِّ بواعثِ الاستكبار والطُّغيانِ والعُتوِّ.

٤- الكَفُّ عَن التدخُّلِ في شُؤونِ الدُّولِ الأُخرى[٣]، إنْ بمَنطقِ القوَّةِ أو بمَنطقِ التطفُّلِ، فلِلأُممِ كَما لِلأفرادِ حُرمتُها، ولَها مِن الوَعي الجَمعيِّ مَا يُخوِّلُها وحدَها حقَّ

---

(١) ما بَرِحَ دُعاة السَّلام المُعاصرون يُلحُّون على مثلِ هذه الخُطوةِ العمليَّة، وفي خطبةٍ للفيلسوفِ البريطانيِّ (برتراند راسل) أَلقاها في مَجلسِ السَّلام العالميِّ في هلسنكي عاصمةِ فنلندا سنةَ (١٩٥٥م) شاهدٌ مبكرٌ على ذلك. انظر الخطبةَ في كتابِ: برتراند راسل الإنسان: رمسيس عوض: ص٥٤، القاهرة، الدَّار القوميَّة للطِّباعة والنَّشر، د.ت.

(٢) القَصَص: ٣٩.

(٣) من الغريبِ أن يُشيرَ صَموئيل هنتينغتون إلى ضَرورةِ هذَا الأمرِ؛ رُغم نبوءته بصدام الحضاراتِ، إذْ يوصي بضرورةِ إحجامِ دولِ المركز -ويعني الدُّولَ الصّناعيةَ الكبرى- عن التدخُّل في صراعاتِ الحضارات الأخرى من دوَلِ العالم النَّامية، وهو ما يعبّر عن أوَّل متطلَّبات السَّلام في عالمٍ متعدّد الحضارات، متعدّدِ الأقطاب، على أن تعترفَ هذه الدُّول الكبرى بأنَّ التدخُّلَ الغربيَّ في شؤون الحضَارات الأخرى يُمكن أن يكون المصدرَ الوحيدَ والأشدَّ خطراً لعدم الاستقرار، وللصّراع الكونيِّ المحتملِ في عالمٍ متعدّدِ الحضارات، علماً بأنَّ مستقبلَ كلٍّ من السَّلامِ والحَضارة يعتمدُ بنحوٍ كبيرٍ على التفهُّم والتَّعاونَ بين القادة السِّياسيّين، والدّينيّين، والمفكّرين، في كلٍّ من حضاراتِ العالمِ الرَّئيسة. انظر كتابَه: صِدام الحضارات: ص٥٠٥-٥١٢ و٥١٦ و٥٢٠.

التَّصرُّف في شُؤونها: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، وقَد يَسوغُ في هذا المقامِ مَنطِقُ النُّصحِ والتَّذكير ولا يَزيدُ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ﴾[3].

٥- التَّوكيدُ مُجدَّداً علَى أنَّ الأملَ في سلامٍ دائمٍ يَسودُ العالمَ ويستمرُّ في صُورةٍ مطَّردةٍ مَرهونٌ كلُّه بالتَّربيةِ الأخلاقيَّةِ، علَى اعتبارِ أنَّ السَّلامَ هدفٌ إنسانيٌّ نبيلٌ يُوجبُ أوَّل ما يوجبُ الإقرارَ والعملَ بأَخلاقيَّات التَّواصُل بين الشُّعوب والدُّول، حتَّى في أحوالِ التَّخاصُمِ والتَّنازُعِ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[4]، نَعَمْ، هكَذا بإطلَاقٍ.

---

(١) الأنعام: ١٣٥.
(٢) القَصَص: ٥٥.
(٣) الذَّاريات: ٥٤-٥٥.
(٤) البقرة: ٨٣.

الخاتمةُ:

وفيما هَهُنا أُثبتُ أهمَّ الخُلاصاتِ والنَّتائجِ بما أستَجمعُ بهِ صفوةَ القولِ بُعَيدَ هذا البحث، وفقَ ما يأتي:

١- لا غَرْوَ أَن تَستوعِبَ هذا البحثَ وتَزيدَ علَيه آيةٌ أو بعضُ آيةٍ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، فَ(لِكلِّ آيةٌ ظَهرٌ وبَطنٌ، ولِكلِّ حدٌّ مَطلعٌ)[1]، وفي هذا الوَصفِ إيماءةٌ إلى ما تختزنُه كلُّ آيةِ قُرآنٍ مِن معانيَ حيَّةٍ مُتكثِّرةٍ ليسَ يَعرُوها نُضوبٌ أو جُمود، وقَد جرَت هذه الآيةُ في أدبيَّات الإسلامِ مَجرَى المثَلِ السَّائر[2]، لِما في طَبيعَتِها من وجازةٍ في اللَّفظ، واتِّساعٍ وعُمقٍ في المَعنَى.

٢- إنَّ المنهجَ القرآنيَّ المُستَبطَن في حُروفِ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بكلِّ دِلالاتِه وحيثيَّاتِه هو فلسَفةٌ مُثْلَى لإشاعةِ السَّلامِ بين أفرادِ العالَمِ وأُمَمِه بنَحوٍ لَم يُزايِد علَيه بَلْ يتقاصَرُ دونَهُ فلاسفةُ السَّلامِ العالميِّ الكِبار، مِن أمثالِ: الألمانيِّ إيمانويل كانط (١٨٠٤م)، والألماني ألبرت أينشتاين (١٩٥٥م)، والإنكليزيِّ برتراند راسل (١٩٧٠م)، والهنديِّ أوشو (١٩٩٠م)، وغيرِهم.

٣- أناطَ البيانُ القرآنيُّ إمضاءَ أَسبابِ التَّواصُلِ والتَّفاعلِ بين البشَرِ أُمماً وأَفراداً بعلَّةٍ واحدةٍ هيَ (المُسالَمَةُ الإنسانيَّة).

٤- إنَّ بيانَ القُرآن إذْ يُنيطُ إمضاءَ التَّفاعلِ بين الحضاراتِ بعلَّةِ المُسالَمة -كما تقرَّر- فإنَّ الصِّراع في مَنظورِه ليسَ مآلاً من مآلاتِ هذا التَّفاعلِ إلَّا في حدٍّ مَحدودٍ، وهُو ما كانَ لِرَفعِ ظُلمٍ أو دَفعِ اعتداءٍ، وهُنا مَكمَنُ الفَرقِ بين التصوُّرِ القرآنيِّ والتَّصوُّرِ الماديِّ الجدَليِّ، إذْ أناطَ هذا الأخيرُ التَّفاعلَ بعلَّة (المنفَعة)، وبرَّر في سبيلِها شتَّى الوسائلِ، وإنْ بطَريقِ القوَّة والقَهرِ.

---

(١) حديثٌ نبويٌّ صحيحٌ أخرجهُ أحمدُ في مسنَدِه (٤٢٥٢)، وابنُ حبَّان في صَحيحِه (٧٥)، وأبو يَعلَى في مسنَده (٥١٤٩)، وغيرُهم.

(٢) أو مَجرَى المثَل المُرسَل علَى ما اصطُلِحَ علَيه في علومِ القرآن. انظُر مثلاً: مباحث في علوم القرآن: منَّاع القطَّان: ص٢٨٠.

٥- القتلُ والقِتالُ كَريهٌ في الفِطَرِ السَّليمةِ وفي بيانِ القُرآن: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[1]، وإنْ اتَّفقَ وقامَ هذا المَكروهُ فينبغي تَعاطِيه حلاًّ استِثنائيًّا لا إستراتيجيًّا.

٦- للدَّفعِ الإنسانيِّ في فلسَفةِ القُرآن قيدٌ واحدٌ عامٌّ ومُطَّردٌ هو (الحُسنَى) أو (بالَّتي هِيَ أَحسَنُ)، وقد تنوَّعَ التَّنصيصُ على هذا القَيدِ بأَوجُهٍ بليغةٍ تُفيدُ وجوبَ مُلازَمتِه دُونما تخلُّفٍ.

٧- المَقصِدُ الأَبلَغُ مِن تَوكيدِ القرآنِ علَى هذا القيدِ هو: إزهاقُ رُوحِ الاستكبارِ والتَّجبُّرِ والوِصايةِ العَنيفةِ بين البشَر، وإفشاءُ رُوحِ التَّحارُصِ والتَّراحُمِ والتَّآلف بينَهم، بِلسانِ الرِّفقِ ويَدِ الإحسانِ.

٨- يَظلُّ العفوُ والصَّفحُ منهَجاً متَّبعاً في الدَّفعِ الإنسانيِّ ما لَم يَبلُغ الضرُّ بصاحبِه مَبلغَ الظُّلمِ القاهِر؛ فإنْ كانَ ظُلماً أو ضُرَّاً خاصَّاً فالمُسامَحةُ أَولَى، وإنْ كانَ عامَّاً وَجبَ رَفعُه، وليسَ يَخرجُ هذا الرَّفعُ عَن حُدودِ قَيدِ (الحُسنَى)، ولا عَن قَيد (العدل) من بابِ أَولَى.

٩- يتَفاوَتُ النَّاسُ في إصابةِ سُدَّة (الحُسنَى) في الدَّفعِ بحسَبِ مؤشِّرِ الحكمةِ فيهم، ويكونُ بمقدارِ ما اندَمجَتْ عليهِ طِباعُهم مِن (حَظٍّ عَظيم)، أيْ مِن فضائلَ رُوحيَّةٍ وعَقليَّةٍ تَسمُو بهِم عن حالِ الانتقام، وتُنزِّهُهم عَن الاشتغالِ فيه، وإنَّ بيانَ القُرآن يُغرِي النَّاس علَى الدَّوام بإصابةِ الحدِّ الأَعلى من (الحُسنَى).

١٠- لا رَيبَ في أنَّ تَوجيهَ النَّوايا في عَمليَّة الدَّفع بالحُسنى صَوبَ وِجهةً مُتعالِيةٍ عَن حدِّ الزَّمانِ والمكان (الله) يَمنحُ الدَّفعَ أثراً أبلغَ ومُكثاً أَدوَمَ، يتزايدُ تزايدَ الإخلاصِ لِتلك الوِجهة المقدَّسةِ، ويَعظُم بقدرِ الإبلاءِ في تتبُّعِ سَبيلِها وتحرِّي مُرادِها.

١١- الإيلافُ بين النَّاسِ والحضَاراتِ في صُورةِ (سَلام عالميٍّ) فلسفةٌ قرآنيَّةٌ أَصيلةٌ، تنتهجُ أُسلوبَ الصَّفحِ والإعذارِ في الشُّؤون الخلافيَّة، وأُسلوبَ التَّعارفِ

(١) البقرة: ٢١٦.

والتَّعاون في الشُّؤون المشتركةِ الاتِّفاقيَّة.

١٢- جرَى بيانُ القرآنِ على اعتبارِ مَن يَستَنكِفُ عن تَعاطي أَنماطِ التَّفاعل الحضاريِّ حالَ قيامِ علَّتِه (المُسالَمَة الإنسانيَّة) مُندرِجاً في عِدادِ مَن ﴿يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[١].

١٣- في حَالِ المُشاكَسةِ المُستفزَّةِ الظَّالمة والضَّارَّة يكونُ للمُتضرِّرِ والمَظلوم سُلطانٌ يُخوِّلُه رَفع الضُّرِّ ودَفعَ الظُّلم؛ إمَّا بـ(العدلِ) وهو الردُّ في حدودِ المِثْل، أو بـ(الفَضلِ) وهو التَّصبُّر والصَّفحُ والتَّفويضُ لِمَن لهُ الخَلقُ والأَمرُ والعِلمُ، وهو الموقفُ الأمثَلُ والأعلَمُ والأحكَمُ والأحسَنُ.

١٤- الأمرُ الإلهيُّ أَتى بإعدادِ القوَّة بإطلاقٍ دُونَ استعمالِها: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[٢]، فلا يكونُ استِعمالُها إلَّا عندما تبلغُ الحاجةُ إليها مَبلَغَ الاضطِرارِ الكلِّي، أيْ عندما تَجدُكَ في مَضيقٍ حَرِجٍ لا يُخرِجُك منهُ غيرُ الدَّفعِ باليَد، أو عندما تحطُّكَ المُسالَمَةُ في دَركِ الذِّلَّةِ والهَوان: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾[٣].

١٥- لعلَّ مِن أَهمِّ مَقاصِد القُرآنِ في فلسفَتِه الحضاريَّة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ المَيْزَ الواقعيَّ بينَ ما هُو حَضاريٌّ حقّاً إذ يكونُ ذا نَزعةٍ هابيليَّةٍ مُسالِمة، وبينَ ما هُو شِبهُ حَضاريٍّ إذْ يكونُ ذا نَزعةٍ قابيليَّة مُعتدِية.

١٦- ليسَ ما سنَّهُ القُرآنُ في فلسفتِه من أُصولٍ وقوانينَ يُشيع بها رُوحَ السَّلام في العالَم وليدَ ظروفٍ عارضةٍ أو تطوُّرٍ تاريخيٍّ، وإنَّما هو جُزءٌ لا يتجزَّأُ من مَنظومةِ الإسلامِ العالميَّةِ مُذْ كانَتْ، في نُصوصِها القُرآنيَّة والنَّبويَّة معاً، وليسَ الأمرُ كما قَد يَحسَبُ بعضُهم مُجرَّدَ فلسفةٍ نظريَّة، بلْ هو فوقَ ذلك فلسفةٌ عَمليَّة تنضَحُ بتَرجمةٍ واقعيَّةٍ ومُمارساتٍ سلوكيةٍ تَكسوها ثوبَ الإلزامِ الدِّيني الواجب، ولئِن أَصابها بعضُ

(١) الماعون: ٧.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) محمَّد: ٣٥.

الخطَلِ والخلَلِ في أُسلوبِ التَّطبيق البشريِّ إنَّ ذلك لَمِن طبيعةِ الأشياء، وإنَّ فسادَ الصُّورةِ قد لا يكونُ في مادَّتِها، بلْ في أُسلوبِ تركيبِها.

١٧- إنَّ فلسفةَ القُرآنِ عُموماً تُشخِّصُ رِسالةَ (سَلام عالميٍّ) جاءَت لاستنقاذِ البشَرِ من درَكات التَّخلُّف والتَّنازع والجَهل إلَى درَجات التقدُّم والتَّسالُم والعِلم، وعلَيه، تكونُ هذه الفلسفةُ القرآنيَّةُ ديناً لِمَن يُؤمنُ بالقرآن وثقافةً رائدةً ونبيلةً لِمَن لا يُؤمنُ بهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

نَعَمْ، ما أَكرمَها مِن دعوةٍ!، ومَا أعظمَها مِن إهابةٍ قدسيَّةٍ!، تَعلَقُ بالفُؤادِ، وتَترُكُ في الآذانِ صَدى وُجودِها العَميقِ، وتَنشرُ في دُنيا النَّاسِ ذُؤابةً من شُروقِ الوَعيِ الدَّينيِّ.

والحمدُ للهِ الذي بِنَعمائِه تَتمُّ الصَّالحاتُ.

(١) يونُس: ٢٥-٢٦. وحذَفَ مفعولَ (يَدعُو) بقصدِ التَّعميم، أيْ يدعو كلَّ أحدٍ. ولمَّا كانَ السَّلامُ من جنسِ النَّعيمِ المُمتَنِّ به في الآخرَة، عُلِمَ أنَّه سببٌ للنَّعيمِ في الدُّنيا كذلِك.

المَصادرِ والمراجِع

القرآنُ الكريم.

إتحافُ فضلَاء البشَر في القراءاتِ الأربعةَ عشَر: شهَاب الدِّين أحمَد بنُ محمَّد الدِّميَاطي (١١١٧هـ)، تَحقيق: أنَس مُهرَة، بيرُوت، دار الكتُب العلميَّة، ١٩٩٨م.

الإتقَانُ في علُوم القُرآن: جلالُ الدِّين عبدُ الرَّحمن بنُ أَبي بكر السُّيوطي (٩١١هـ)، تَحقيق: سعيد المندُوب، بيرُوت، دار الفِكر، ١٩٩٦م.

الإسلَامُ والسَّيف: رِينيه غِينون (عَبد الواحِد يَحيَى ١٩٥١م)، في كتَاب (قَضيَّة التَّصوُّف) لعَبدالحلِيم محمُود (١٩٧٨م)، دار الكُتب الحديثَة، ١٩٦٨م.

إنسَانيَّةُ الإنسَان؛ نَقد علميٌّ للحضَارةِ المادِّية: رينيه دوبُو (١٩٨٢م)، تَعريب: د. نَبيل صُبحي الطَّويل، بيرُوت، مؤسَّسة الرِّسالَة، ١٩٧٩م.

التَّاريخُ والمؤرِّخون: د. حُسَين مُؤنِس، القاهرَة، دار الرَّشَاد، ط٢، ٢٠٠١م.

التَّسهيل لعلُومِ التَّنزيل: محمَّد بن أَحمَد ابنُ جُزَي الغرناطِيُّ الكَلبيُّ (٧٤١هـ)، بيرُوت، دار الكتَاب العَربيِّ، ١٩٨٣م.

التطرُّف والاعتدَال: د. محمُود عكَّام، حلَب، دار فُصِّلَت للدِّراساتِ والتَّرجمةِ والنَّشر، ٢٠٠٨م.

جامعُ البيَان عَن تَأويلِ آيِ القُرآن: أَبو جعفَر محمَّد بن جَرير الطَّبري (٣١٠ هـ)، بيرُوت، دار الفِكر، ١٤٠٥هـ.

الجامعُ لأحكامِ القُرآن: أَبو عبد الله محمَّد بن أحمَد الأنصَاريُّ القُرطبيُّ (٦٧١هـ)، القاهِرة، دار الشَّعب، د.ت.

الحضَارةُ مفهُوماً إسلَاميًّاً: د. محمُود عكَّام، حلَب، دار فُصِّلَت للدِّراساتِ والتَّرجمةِ والنَّشر، ٢٠٠٣م.

حَقائقُ التَّفسير: أَبو عبد الرَّحمن محمَّد بنُ الحُسين الأَزدي السُّلَميِّ (٤١٢هـ)، تَحقيق: سيِّد عمرَان،

بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ٢٠٠١م.

الحقُّ الإسلَاميُّ في الاختلَافِ الفِكريِّ: د. طَه عبدُ الرَّحمن، المَغرِب، المَركَز الثَّقافِي العَربيُّ، ط ١، ٢٠٠٥م.

الدرُّ المنثُور في التَّفسيرِ بالمأثُور: جلالُ الدِّين عبد الرَّحمن بنُ أَبي بكر السُّيوطي (٩١١م)، بيرُوت، دار الفِكر، ١٩٩٣م.

الرِّسالة: محمَّد بنُ إدريس الشَّافعيِّ (٢٠٤م)، تحقيق: أحمد شاكر، مصر، مكتبة الحلَبي، ط ١، ١٩٤٠م.

الرَّوضُ الأُنف في شرح سيرةِ ابنِ هشام: أَبو القاسم عبدُ الرَّحمن السُّهَيلي (ت: ٥٨١هـ)، تحقيق: عُمر السَّلامي، بيرُوت، دار إحياء التُّراث العربي، ٢٠٠٠م.

زَادُ المَسيرِ في علْمِ التَّفسير: أَبو الفرَج عبدُ الرَّحمن بنُ عليٍّ ابنُ الجوزيِّ (٥٩٧هـ)، بيرُوت، المكتَب الإسلَاميُّ، ١٤٠٤هـ.

سُنَنُ التِّرمذيِّ: أَبو عيسَى محمَّد بنُ عيسَى التِّرمذيُّ (٢٧٩هـ)، تَحقيق: أَحمد محمَّد شَاكر وآخرُون، بيرُوت، دار إحيَاء التُّراث العربيِّ، د.ت.

شُعَب الإيمان: أَبو بكر أَحمدُ بنُ الحُسَين البَيهقيُّ (٤٥٨هـ)، تَحقيق: محمَّد السَّعيد بَسيُوني زَغلُول، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ١٤١٠هـ.

صَحيحُ ابنُ حِبَّان (بتَرتيب ابنِ بلَبان علَاءِ الدِّين الفَارسيِّ ٧٩٣هـ): أَبو حَاتم محمَّد بنُ حبَّان التَّميمي البُستي (٣٥٤هـ)، تَحقيق: شُعَيب الأَرناؤوط، بيرُوت، مُؤسَّسةُ الرِّسالَة، ١٩٩٣م.

صِدام الحضارات؛ إعادة صنع النّظام العالمي: صموئيل هنتينغتون (٢٠٠٨م)، القاهرة، دار سطور، ١٩٩٨م.

فِقهُ اللُّغة وَسرُّ العَربيَّة: أَبو مَنصُور عَبدُ الملِك بنُ محمَّد بنِ إسمَاعيلَ الثَّعالبيُّ النَّيسابوريُّ (٤٣٠هـ)، تَحقيق: مصطَفى السَّقَّا وإبرَاهيم الأبيَاري وعَبد الحفيظ شَلَبي، القاهِرة، الهيئَة العامَّة لقصُورِ الثَّقافَة، ٢٠٠٨م.

الكشَّافُ عَن حقَائق غَوامِض التَّنزيل: جَار الله محمُود بنُ عُمر الزَّمخشري (٥٣٨هـ)، تَحقيق: عَادل عَبد الموجُود وعَلي معوَّض، الرِّياض، العبيكَان، ١٩٩٨م.

مَباحثُ في علُوم القُرآن: منَّاع القطَّان، القاهِرة، مكتبة وَهبة، ٢٠٠٠م.

مَبادئُ القانونِ الدَّوليِّ العامِّ في الإسلَام: د. محمَّد عبد الله درَاز (١٩٥٨م)، القاهرَة، المَجلِسُ الأَعلَى للشُّؤونِ الإسلَاميَّة، ١٩٦٦م.

مجمَعُ الزَّوائد ومَنبعُ الفَوائد: عليُّ بنُ أَبي بكر الهيثميُّ(٨٠٧ هـ)، القاهرَة وبيرُوت، دار الرَّيان ودار الكتَاب العربيِّ، ١٤٠٧هـ.

المُحرَّر الوَجيزُ في تَفسيرِ الكتَابِ العَزيز: أَبو محمَّد عبدُ الحقِّ بنُ غالِب بنِ عَطيَّةَ الأندلُسيُّ (٥٤٦هـ)، تَحقيق: عَبد السَّلام محمَّد، بيرُوت، دار الكتُب العلميَّة، ١٩٩٣م.

مُسنَد أَحمد: أَبو عَبد الله أَحمدُ بنُ حنبَل الشَّيباني (٢٤١هـ)، مِصر، مؤسَّسة قُرطُبة، د.ت.

معَاني القُرآن الكَريم: أَبو جعفَر أحمَد بنُ محمَّد النحَّاس (٣٣٨هـ)، تَحقيق: محمَّد عَلي الصَّابوني، مكَّة المكرَّمة، منشُوراتُ جامعَة أمِّ القُرى، ١٤٠٩هـ.

المُعجَمُ الأَوسَط: أَبو القَاسم سُلَيمانُ بنُ أحمَد الطَّبرانيُّ (٣٦٠هـ)، تَحقيق: طَارِق عَوض الله وعَبد المُحسن إبرَاهيم، القاهِرة، دار الحرَمين، ١٤١٥م.

مُعجَم الفُروقِ اللُّغويَّة: أَبو هلَالٍ الحسنُ بنُ عبدِ الله العَسكريُّ (٣٩٥هـ)، تَحقيق: محمَّد باسِل عيُون السُّود، بيرُوت، دار الكُتب العِلميَّة، ط١، ٢٠٠٠م.

المُعجَمُ الكَبير: أَبو القَاسم سُلَيمانُ بنُ أحمَد الطَّبرانيُّ (٣٦٠هـ)، تَحقيق: حَمدي عَبدالمَجيد، الموصِل، مكتبةُ الزَّهراء، ١٩٨٣م.

مفَاتيحُ الغَيبُ أَو التَّفسيرُ الكبير: فخرُ الدِّين محمَّد بن عُمر الرَّازي (٦٠٦هـ)، بيرُوت، دار الفِكر، ١٩٨٥م.

ميثاق الأمم المتَّحدة: الموقَّع سنة ١٩٤٥م.

النَّاسخُ والمَنسوخُ في القُرآنِ الكَريم: أَبومحمَّد عليُّ بنُ أحمَد؛ ابنُ حَزمٍ الظَّاهريُّ الأندلُسيُّ (٤٥٦هـ)،

تَحقيق: عَبد الغفَّار البندَاري، بيرُوت، دارالكتُب العلميَّة، ١٤٠٦هـ.

نَظريَّةُ الحربِ في الإسلَام: محمَّد أبو زهرة (١٩٧٤م)، القاهِرة، دار الفِكر العَربيِّ، ط ١، ٢٠٠٤م.

نَواسخُ القُرآن: أَبو الفرَج عبدُ الرَّحمن بنُ عليٍّ ابنُ الجوزيِّ (٥٩٧هـ)، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ١٤٠٥هـ.